الرواية الفائزة بجائزة ببلومانيا للرواية العربية 2022 - BCAN

يوم آخر في الجحيم

د. أماني إسكندراني

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHING

يوم آخر في الجحيم

رواية

د. أماني اسكندراني

يوم آخر في الجحيم

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ الكتاب: يوم آخر في الجحيم
❖ المؤلف: د. أماني اسكندراني
❖ الطبعة الأولى 1444 هـ - 2022 م - القاهرة
❖ الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر
❖ رقم الإيداع: 26451 / 2022
❖ الترقيم الدولي ISBN: 978 – 977 – 994 – 4581
❖ الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00401479
❖ مدير عام: جمال سليمان – مدير تنفيذي: محمد جلال
❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
❖ تليفاكس: 002026064518 - 002026337855
❖ محمول: 00201210826415 – 00201030504636 – 00201208868826
❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

/bibliomania.eg

© جميع الحقوق محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS
www.bibliomaniapublishing.com

2022

جميع الحقوق محفوظة ©

رواية بعنوان:

يوم آخر في الجحيم

الكاتبة: أماني احمد اسكندراني

إهداء:

إلى من كنتم سبباً في ألمي

إلى من تقرؤون أنفسكم بين طيات كتابي

إلى من جعلتم الحزن زادي والألم موطني

إليكم أهدي عذابي هذا ... ليسكنكم العذاب الأبدي

مقدمة:

لكل منّا روايته، يخط عليها ما شاء وما يشاء ، منّا من يسلم روايته متكاملة وبديعة، ومنّا من يسلمها مليئة بالأخطاء، ومنّا من يسلمها فارغة لم يشأ له القدر أن يخط عليها أي كلمة.

لكن مع هذا سنحاسب بدورنا على هذه الرواية وعلى ما جاء فيها من خير ومن شر، نعلم أنَّ هناك نسخة أخرى من روايتنا كتبت قبل أن نستلمها، كتبت بشكلٍ مفصل وواضح لا لبث فيها ولا لأحد القدرة أن يمحي منها أو يغيرها.

وبهذا وجب علي إخباركم بما جاء بروايتي إلى يومي هذا، رغبة في توضيح بعض الأمور، بل ربما رغبة في نسف عادات وأفكار وجذور غرست وما ازلت تغرس بأذهاننا، لأرمي بها بعيداً، ولأجعلكم تتعذبون بها مثلما تعذبت أو تعيشون برضا كما لم أفعل يوماً ، وهذا ما يحزنني..

لم أعرف معنى الرضا يوماً من الأيام، عانيت واحترقت واشتعلت النيران بداخلي، ويكأنّ حجرة غرست بقلبي منذ ولادتي لتحرقني كل يوم يمر دون أن أستطيع اطفاءها أو محوها من حياتي.

وها أنا اليوم أترّخ قصة عائلة عاصرت آلام الجميع وأحزانهم وأوجاعهم، عائلة من الطبقة السفلى.

وهكذا بدأت قصتي.....

صرخة حياة
طفولة غريبة

"نَكُونُ صِغَاراً ، فَنَتَمَنَّى أَنْ نَكْبُرَ ....
فَإِذَا كُبُرْنَا تَمَنَّيْنَا أَنْ نَعُودَ أَطْفَالاً صِغَارا."

مصطفى صادق الرافعي

كان يوماً حاراً من أيام أغسطس، يوماً شهد صرختين في آنٍ واحد، صرخة فرح وصرخة ألم وحزن، صرخة استقبال وصرخة وداع.

ولدت وأطلقت نداء الحياة، وأصوات الخوف والألم والفرح والحزن ممزوجة معاً كأنّها صوت واحد يصدر من فم طفل حديث الولادة.

صادفت ولادتي وفاة لأحد جيراننا في الحي، وكأنّ القدر يمحي شخص ليحيي به شخص آخر، فما من وفاة إلا ورافقتها ولادة في مكان ما، ليتحقق التوازن على هذه الأرض.

أتيت على هذه الدنيا سليمة معافاة، صحيحة الوزن، لا أعاني عيباً ظاهرياً، لكن لا أحد يعلم بالعيب الداخلي المستتر الخفي، فهل أنا الوحيدة التي جاء معها هذا العيب؟ أم أنّ كل طفل يُولد مزود به كزوادة ينهل منها بقية حياته؟

كنت طفلة ذات شعر رأس كثيف، سُميّت أمينة، أمينة التقوى، سيلازمك هذا الاسم حتى الممات، ليشاركك فرحك وصرخاتك وتأوهاتك.

لم أكن طفلة هادئة، بل هائجة مليئة بالغضب، بالصراخ، بالبكاء.

كنت طفلة لا ترحم أمها، لا في نومها ولا في يقظتها، تبكي طوال الوقت دون أن يعلم من حولها ما بها، لم تحب حليب أمها يوماً، ورفضت ثديي والدتها رفضاً مطلقاً لتعاقبها على ذنب لا تعلمه أمها ولا حتى هي نفسها، لذا كان لابدّ من حليب اصطناعي كبديل لتتغذى به الطفلة.

كانت أمينة الطفلة الوسطى، سبق قدومها طفلتين وتلى قدومها طفل آخر، ترعرعتُ في منزل متواضع أبسط ما يقال عنه أنه مكان بلا مأوى، فجدرانه قد شاخت وتآكلت، أو ربما صنعت هكذا مهترئة، مليئة بالثقوب والحجارة والفقر .

كل حجر فيه يقول لن أستمر لليوم التالي، سأقع وسأجعلكم تسقطون معي دفعة واحدة، لكنّ هذا ما لم يحدث إلّا بعد فترة طويلة من الزمن وبفعل فاعل.

للمنزل غرفتين وفسحة كبيرة وسطح، غرفة ينام بها الجميع الوالدان والأطفال الأربعة، ينامون متراصين وكأنهم وجبة طعام، ولم تكتفِ هذه الغرفة المتواضعة أن تكون منامة لتصبح غرفة طعام وغرفة استقبال وغرفة لتبديل الملابس.

في الصباح تتم إزالة الفُرش الموزعة على الأرض لتوضع تحت سرير كبير. يحتل مكاناً وحيزاً كبيراً في الغرفة، لتصبح غرفة لائقة باستقبال الزوار، واستقبال نهار جديد بكل ما يحمله من فرح وألم.

إلّا أن ما يميزه هو فسحته التي تحوي شجرة كبيرة تطل بظلالها عليه، لتحميه من الرياح وما تحمله من غبار وأوساخ، تدعى شجرة نانرنج،

رائحتها مميزة وشـــهية لدرجة أنّ أي حبلى تمر أمام المنزل وتشـــم رائحتها تتوقف وتدق الباب رغبة في الحصـــول على زهرة منها أو ثمرة ناضـــجة أو ورقة طازجة، فكل ما فيها ينضـــح بالفائدة والدفء والحياة.

وهذه الشجرة تمسك بشجرة أخرى تسمى " الدالية" أو " ورق العنب"

تتحدان معاً لحماية هذا البيت ومن فيه ولمنحهم شـــيئاً ربما يعوض عليهم ما قد حرموا منه أو ليشعروا بتميزهم وبأهمية منزلهم.

وأكثر ما يبهج هذا المنزل ويزيده رونقاً، هو الأزهار والورود المتعددة البراقة والبهية الألوان، ورائحتها العطرة وشـــكلها الباعث للســـعادة، وياســـمينته البيضـــاء البديعة بأزهارها الرقيقة وأنوثتها الطاغية، بالإضـافة إلى نبتة غريبة بشكلها فلا هي ذات رائحة ولا لون تسمى " راخي شـعره " وربما يطلقون عليها هذا الوصـف لأنّ أغصـانها تتدلى منها للأسـفل كشـعر الإنسـان، كما تسـمى أيضـاً بنبات العنكبوت لكثرة أغصـــانها الصـــغيرة التي تتدلى منها لتشـــكل عناكب متعددة متفرعة عنها، رغم أنها ليست جميلة إلا أنها تساعد في تنقية الهواء خاصـة في الأماكن المغلقة، إلا أنّ هذه العائلة قد وضـــعت هذه النبتة في كل مكان من المنزل لتحتل أجزاءً كبيرة من فسـحته، حيث تصـطف الواحدة تلو الأخرى على جدران هذا المنزل في أقاصـيص صـغيرة معلقة بمسـامير ثابتة على ارتفاع متر من الأرض تقريباً، فإمّا أنّ صـــاحب المنزل يحبها لدرجة شديدة أو أنّه يخفي بها بشاعة المنظر.

أمّا الغرفة الأخرى من المنزل فقد كانت لضـــيفة أخرى، ضـــيفة خفية سكنتها.

لا تخرج منها أبداً، تشـعر بعيونها تراقب من في المنزل وتتابعهم أينما

ذهبوا من نافذة غرفتها الصـــغيرة المطلة على فســـحة المنزل، غرفة هادئة للغاية.

كثيراً ما تساءلنا هل هناك حقاً ضيفة في هذه الغرفة، هل يسكنها أنس أم جن ؟ ، لكن مع الأيام تعايشـــنا معها وتعلمنا عدم الاقتراب من هذه الغرفة لأي سبب كان.

كان منزلنا جنّة بالنســبة لنا نحن الصــغار بكل ما فيه من شــجر ومن أحواض زينة ومســاحات خضــراء، أشــبعنا فيه فضــولنا وأفرغنا فيه طاقاتنا.

كنت طفلة متأملة، أعشــق الشــمس المتســاقطة عبر أغصــان الشــجر والخيوط الذهبية الهوائية المتشــكلة منها والتي تملؤ البيت بهجة وألوان زاهية براقة.

أعشـق الرياح ومداعبتها لشـجرة النانرنج وكأنّها صـديقتها جاءت تلقي عليها بالتحية، فتميل الشجرة لترد عليها تحيتها بإصدار أصواتٍ ناعمة رقيقة من أغصانها الخضراء الطويلة الحانية.

أعشق الأرض الصلبة القاسية التي تشققت قدمي من خشونتها لتطبعني بصفاتها وتجعلني شبيهتها.

أعشـق التصـدعات في أرجاء المنزل، والتي كثيراً ما قمنا بحفرها أكثر لنكتشف ما هو مخبأ فيها.

لم نكن العائلة الوحيدة التي سـكنت هذا المنزل، فقد شـاركنا فيه عوائل كثر، النمل والفئران والجرذان والصـــراصـــير والناموس والذباب والزنابير والنحل والعصافير والحمام والسحالي، هذه العوائل التي

شاهدتها وعايشت طفولتي.

وربما كان هناك عوائل أخرى لم أرها لكنني شعرت بها، عوائل ليس لها اسم أو وصف أو رمز، تشعر بهالتها فقط محيطة بك.

كل عائلة اتخذت لنفسها موطناً في هذا المنزل دون أن تستأذن من أصحابه، أحياناً أشعر بأنّها سكنت قبلنا ونحن لم نستأذنها للبقاء معها.

لا أعلم إلى اليوم كيف عشنا معاً أو كيف تعايشنا، لكن الضرورة هي التي قد فرضت علينا الاعتياد، فمع الوقت قد تعتاد ما تعده كابوسك الأسوأ على الإطلاق، مأساتك الكبرى، التي لم تتخيل يوماً أنّك قد تتقبلها ولو لبعض الوقت، فالوقت كفيل بكل شيء.....

نستيقظ كل صباح على زقزقة العصافير، رغم أنّها تسمى زقزقة ورغم أنّ الآخرون يرونها جميلة، إلّا أنّني أعتبرها صراخاً وزمجرة وشتيمة، تصدر إمّا عن صغير جائع في العش يعترض على عجزه ويأسف على وضعه، وينادي بغضب والدته، وآخر يرغب في شريكة ترفضه، أو يبحث عن مكان أو شق في منزلنا فلا يجده، فيبدأ بالنواح واطلاق الشتائم على صاحب هذا البيت الذي لم يدع هذا الشق أو الفجوة أوسع قليلًا ليتمكن من اتخاذها موطناً له، وهكذا كل يوم، زوار جدد وعائلات جدد.

كنت أفضل أصوات الحمام وهديرها الذي يملأ الكون بأناشيد التضرع لله.

حتى وهي تبحث عن مأوى أو عن شريك أو تسعى للقمة عيش، فهي مثال الحنان والحب والرقة ومثال الخشية من الله، كنت أراقبها لساعات طويلة وأستمتع بغنائها وحركاتها، وكان أخي يستمتع مثلي بمراقبتها.

كان يصـــغرني بســـنة واحدة ويدعى "ســـامي"، كان رفيق مغامراتي ورفيق تأملاتي.

شـــعره بني غامق أميل إلى لون التراب، ذو بشـــرة بيضـــاء وعينين بنيتين، ووجهه بشـوش وطيب، ويشـبه والدتي كثيراً بأنفه الحادة وذقنه المدورة وعينيه الواسعتين الكحيلتين.

كنّا كثيراً مـا نراقب الحمـام معاً وهي تـأكل وهي تنظر إلينـا وتنـادي رفيقتها، وكنت أحســدها على مرونة رأســها وقدرتها على تحريكه في جميع الجهات، وكذلك أحسد حاستها السادسة، وقدرتها على معرفة من عدوها ومن محبها وأليفها.

وبذلك لم يخلو بيتنا من عش للحمام، تأتي عائلة وتذهب أخرى وكأنّها توّرث عشها كما نورّث نحن البشر أملاكنا ومنازلنا.

فحين رحيل الكبـار من العش بعد أن شـــاخوا وهرموا ، تـأتي الفتية الصغار لتحتل العش من جديد.

لتحيّي به ذكريات وتفاصـــيل طفولتها فيه، ثم تجدده وتعيد تأســـيس ما تلف منه ليبدأ دورة حياة جديدة....

يقع العش على حجر نـاتئ من زاوية جدار المنزل على ارتفاع ثلاث أو أربعة أمتار من الأرض، تحت غطاء أو شـادر كبير يغطي نصـف سماء فسحتنا المنزلية، معلق بحبال مشدودة على أطراف الجدران.

كنّا أنا وأخي نراقبها من الأسفل دون أن نستطيع الوصول إليها، نراها تحمل خشـــبة تارة وتارة أخرى طعاماً ، وكثيراً ما كان الطعام فخماً مؤلفاً من حشرة ضخمة يرقانة أو دودة، وأحياناً لقمة صغيرة كذبابة أو

نحلة.

إلى الآن وأنا أذكر كيف تبني الحمامة عشــها بصــبر وهدوء وتحمل، فرغم الحرارة الشديدة ورغم تقلبات الطقس لا تتوقف يوماً ولا تستسلم. تســتيقظ قبل شــروق الشــمس لتبدأ ســعيها عن أعواد قاســية وأخرى طرية، تصــف الأعواد اليابســة في الأســفل لتشــكل منها قاعدة متينة وتجعلها تتشابك مع بعضها بأخرى لينة، وتظل تقوم بهذا العمل لتصنع علواً جيداً عن الأرض لتقي بذلك جســدها وجســد صــغارها من البرد ومن الحر، وتتم عملها بجعل العش مقعراً من الداخل لتنعم صـــغارها بالراحة وهم داخل البيوض قبل أن يقرروا الخروج ورؤية الحياة.

أكثر ما يمكن أن تضــعه الحمام من بيوض هو اثنين فقط، وهذا ما كان يدهشــني دائماً، فهل تعلم بتنظيم النســل بشــكلٍ فطري؟ أم لديها غريزة تعلمها أنّ تربية الأطفال تحتاج لجهد ووقت ؟

رغم أنّها تكرر هذه الدورة مرات عديدة خلال العام، إلا أنّها في كل دورة لا تضع سوى اثنين فقط.

لم تكن مراقبة الحمام لعبتي الوحيدة، بل كنت أنا وأخي نختلق العديد من الأشياء والألعاب بعقلنا الطفولي.

فأحياناً كنّا نعبث بحوض منزلنا ونحفر فيه أخاديد عميقة رغبة في اكتشاف ما يخبؤوه لنا، فأي طفل قد يتصور أنّ الكبار لابدّ وقد اتخذوا من هذا الحوض صندوقاً لأسرارهم يملؤونها بما يستترون به ويرغبون في إبقاؤه بعيداً عن الأعين من مجوهرات أو أوراق أو أشياء أخرى.

وفي كل مرة نحفر فيها، لم نكن نتوقف لولا صـــراخ والدنا أو والدتنا لنخرج من الحوض حتى لا نتسخ أو تتسخ ملابسنا.

فنســـارع لفعل وابتكار لعبة أخرى حتى نمل منها ونبدأ نفكر في لعبة جديدة وهكذا كل يوم.

وهذا يؤكد أنّه لا يمكن للصغير أن يستمر في لعبة واحدة لفترة طويلة، فسرعان ما يتشتت ذهنه ويلفت انتباهه شيء آخر، أو سرعان ما يمل ممّا بين يديه ويشعر بعدم أهميته، ربما لأنّه قد اكتشفه وعاينه عن قرب فلم يعد يثيره أو يشبع فضوله.

وهكذا كانت أيامنا تتوالى في منزلنا المتواضع ، نستيقظ صباحاً لنملئ بطوننا الصغيرة بطعام فيه من الحب أكثر ما فيه من العناصر الغذائية، ثم نبدأ باللعب والقفز في فسحة المنزل، ثم حفر الحوض واكتشافه من جديد ليتم استبعادنا ونهينا عنه بشدة في كل مرة، ثم الصعود لسطح الدار.

وأحياناً كنّا نعبث بتشققات الأرض لتشتيت أسراب النمل التي تتخذ طريقها للعودة محمّلة بفريســـة، أو يائســـة من عبثية المحاولة والبحث وعدم جدواها.

فننشـــغل بها وهي تســـير بانتظام لنرميها بالماء أو حفنة من تراب، أو نضع أغصان صغيرة لنعيق طريقها، أو قد نأخذ منها فريستها في حال نجاح بحثها، وهذا كان عمل شـــيطاني، فكم كلفها الامســـاك بالفريســـة وحملها والعودة بها ساعات وساعات.

أو يثير انتباهنا معركة شديدة الوطيس بين سرب نملٍ أحمر، وسرب نملٍ أســـود، فلكل ســـرب منزل ولكل منزل حدود، فإن تخطى أيٌّ من السربين الحدود وجب الدفاع والهجوم، وكما في معارك البشر قتلى و جراح، كذلك النمل، فلا تنتهي معركة إلا وقد حصـــدت الكثير من

الأرواح وخلّفت وراءها العديد من الجرحى، ولكنّ هذه الجثث لا تترك على الأرض كما في معارك البشر بل تصبح فريسة ووجبة دسمة للسرب الفائز.

لم أكن أحب يوماً تجمع النمل، حيث كان يشعرني بالتقزز، أعلم أنّ وجوده ضروري لأنّه جزء من نظام كوني وفقدانه سيسبب خلًا في دورة الحياة، انطلاقاً من أنّ كل ما في هذا الكون قد خلق لسبب، لكن مع هذا أشعر وكأنّهم قد استعمروا منزلنا فأخذوا يعبثون به دون مراعاة لمشاعرنا.

وبذلك كنّا سبعة أفراد نتقاسم حلو الحياة ومرها في هذا المنزل، والدان وثلاثة فتيات وفتىً صغير وضيفة خفية تحتل الغرفة الثانية.

هذه العائلة عاشت في حي سكني فقير، بيوته متراصة ومتعانقة تخشى على نفسها السقوط، فتساند بعضها البعض، جدرانها من طين وحجارة ومليئة بالشقوق، أرضها من رمل متكسر، أثاثها من أشياء قديمة عافى عليها الزمن ومخلفات لأناس آخرين قد رموها واستغنوا عنها.

أمّا شوارعه فهي ضيقة تكفي لشخص واحد أو ربما شخصين ليسيرا معاً ، لا زرع ولا شجر.

بل ... أكياس مكدسة فوق بعضها تراها مرمية هنا وهناك حول حاويات القمامة وفي كل مكان، تزين الطريق بمنظرها وبأحشائها التي تناثرت منها و رائحتها العفنة.

حينما تزور هذا الحي صباحاً لا تستطيع سماع نفسك من شدة الأصوات المتأتية من كل مكان ، من مشاحنات داخل البيوت، ومن ألفاظ سوقية يتقاذفها الأطفال فيما بينهم، ومن صراخٍ وسب وشتم

وضرب بالأيدي والأرجل تجده بين الرجال.

وفي المســـاء تمدُّ يدك فلا تراها من شـــدة الظلام، فلا أضـــواء تنير الطريق ولا كهربـاء، إمّـا أنَّهـا مقطوعـة أو أنَّ أحـدهم قـد فجر خزان الكهرباء لا لشيء فقط للتسلية.

أمّا نحنا فكنّا كأي أسـرة عادية هكذا كنت أظنّ وقتها، تسكن في منزلها ومنطقتهـا بـأمـان وهـدوء، لـديهـا بعض المشـــاكـل الـداخليـة وبعض المشـــاحنات والخلافات فيما بينها، و وازدادت هذه المشـــكلات بعد اكتشـافي لحقيقة مرة قلبت حياتي رأسـاً على عقب، ففي يومٍ من الأيام وحينما بلغتُ من العمر خمس ســـنوات تُوفي جدي "والد والدتي"، أذكر بكاء والدتي وحزنها حينما أُخبرت أنَّ والدها قد رحل، ولهفتها للذهاب لبيت جدتي، كانت منفعلة جداً وحزينة ، أذكر أنني كنت أبكي أيضـاً، فالأطفال تصـيبهم عدوى المشـاعر، يفرحون حين يرون من حولهم سـعداء ويحزنون لحزنهم ويخافون لخوفهم، فالأطفال هم مرآة حقيقية لتعلم من خلالها حال أصحاب الدار.
لم ألمس مشـاعر الجدودية مع جدي ولم أخبرها، فجدي "والد أبي" رحل قبل ولادة والدي بزمن كبير، وجدي الآخر لا أذكر عنه شيئاً، فشـخصـيته كانت صـارمة وحازمة وشـديدة، وكان الأطفال يهابونه ولا تسـمع لهم صـوتاً فيح بالإضـافة إلى أنني كنت الحفيدة رقم اثنا عشر، وهذا يعني أنَّه حتى اسمي لم يكن ليخطر على بال جدي أبداً.

فاتفق والدي مع والدتي أن تسبقه لبيت جدتي بينما هو يجهز الصغار ويلحق بها، هنا رفضـــت البقاء مع أبي وتعلقت بقدم والدتي وزاد صراخي في كل مرة كانت أمي تدفعني بها بعيداً عنها، إلى أن قالت لي

الأم :"يـا ليـت أمنيـة هي من بقيـت معي لا أنـت، كم كنـت أتمنى اختفاؤك بدلًا منها".

فابتعدت عنها مصـــعوقة من الدهشـــة، محتارة ممّا ســـمعت، إلا أن حملني والـدي وأخـذني بعيـداً عنهـا، وانطلقت هي مســـرعـة من المنزل، لم أفهم مـا قـالـت والـدتي، فـاســـتعجلـت والـدي بـالجواب وتوسلت إليه لأفهم مغزى كلامها، لكنّه لم يوضح لي شيئاً بل ارتبك وتوتر وقال أشياء غير مفهومة أو مترابطة:

الأب: "أمـك حزينـة ووالـدهـا توفى ومن الطبيعي أن تختلط لـديهـا الكلمات".

مرّ هـذا اليوم ومرّ معـه أجواء الحزن والعزاء وصـــور خـالاتي ووالدتي وهم يودعون والدهم بدموعهم وقلوبهم، وعدنا إلى المنزل مشبعين بلقطات من السواد والبكاء والألم والصراخ، وحين وصولنا طلب منّا والدينا أن نلعب في فســـحة المنزل ريثما تأخذ والدتي اســـتراحة بســـيطة، فانطلق أخوتي ســـعداء بعودتهم للمنزل، لكنني التصـــقت بباب الغرفة حينما ســـمعت اســـمي يلفظ من فم والدتي " أمينة".

شرع والدي يقول لها: "لم يكن عليك أن تقولي مثل هذا الكلام لأمينة فهي صغيرة ولا ذنب لها".

الأم: "هي من كانت السبب في ضياع أمنية، لقد لحقت بها وقتها".

علمتُ وقتهـا ممّـا اســـتطعت فهمـه أنّ لي أختـاً أخرى غير أختيَّ

صـرخت في نفس اللحظة التي صـرخت بها صـرخة الميلاد، وأنّها شـاركتني اعلان الوصـول وشـاركتني الجسـد نفسـه والرحم نفسـه والمشيمة ذاتها، وأنها بكت معي وضـحكت معي ، وأنّ لها اسماً هو أُمنيـة، الاســـمـان قريبـان وبعيدان في نفس الوقت، أمينـة وأمنيـة، قريبان شكلًا وبعيدان مضموناً.

ولم أفهم القصة كاملة إلّا بعد مرور أعوام وأعوام، والقصة كانت:
ولدت أنا وشـقيقتي التوأم معاً في نفس اليوم وفي نفس السـاعة، في يوم حار صيفي شديد اللهب من أيام أغسطس في الخامس والعشرين من أغسـطس في السـاعة السـابعة صـباحاً، لكننا لم نبق معاً فرقنا القدر وباعد بيننا، وربما بات لُأمنية الآن رواية مختلفة تماماً عن روايتي، فهي لا تذكر عني شـيئاً الآن، أبقانا القدر معاً لمدة سـنتين، لتأتي لحظة الفراق في يوم مشـــؤوم حزين في حزيران ، يوم غائم تكسوه الغيوم، وتصاحبه زخات من الأمطار، كنت وقتها في الثانية من عمري، خرجنـا في نزهـة على القطـار مع والـدتي وأخوتي وخالاتي، ثم اضـــطرت والدتي للنزول من القطار لشـــراء بعض الحاجيات وأوصـتنا بالبقاء في القطار وعدم النزول منه لأي سـبب، لكن أمنية لم تطع والدتنا، فقد كانت أكثرنا التصـــاقاً بها، فبكت واسـتمرت في البكاء والعويل أمام الباب وهي تضـرب عليه إلى أن أشـــفق عليها جابيا وفتح لها الباب فخرجت وخرجت معها، إلا أنّ الزحمة كانت شـديدة والركاب كثيرون يصـعدون وينزلون ، فلم أعد أرى أمنية والى الآن لم أرها لقد ضاعت وضاع وجوهها بين مئات بل آلاف من الوجوه، لتنتهي رحلتها معي ولتستمر في مكان آخر أو ربما لتتوقف نهائياً وتصعد إلى السماء، ولكنني أريت أمي فركضت عليها، فتلقيت التوبيخ والتأنيب من أمي لعدم إطاعتي لها، وحين عدنا لأخوتي لم تجد أمنية، فظنت أنني أنا من أصررت على النزول

لا أمنية، فأمنية دائماً مطيعة لوالدتي ولا تخالفها أبداً، وبهذا ظنت أمي أنّني السبب في ضياع أختي التوأم.

باختفاء أمنية، تلاشيت وتضاءلت، لم أعد أعتبر كياناً، فقد اختفت الجميلة ذات البشرة البيضاء والوجه المدور والعينين الملونتين والشعر الأشقر الطويل، ولم يبق سوى ذات البشرة السمراء والعينين البنيتين والفم الصغير، وذات الشفاه الرقيقة والوجه الأسمر ذو الذقن الحادة النافرة، والشعر البني.

كانت المقارنة بيننا ظالمة، فقد كنّا متعاكستين تماماً لا نشبه بعضنا أبداً، وفي عائلتنا مقياس الجمال هو أهم المقاييس في العالم، ربما ليس فقط في عائلتنا بل في أرجاء العالم، فالجمال مقياس ثابت تجده أينما ذهبت في الصين، في الهند، في الفلبين، أو في أوروبا، فبالتالي هذا المقياس سيحتل الجزء الأكبر في بلدٍ نامٍ كبلدنا سوريا، لا يقارن بالبلدان السابقة ذات الحضارة والعلم والثقافة، لكن في مجتمعنا المحلي يؤخذ الجمال ويحدد بامتلاك الفتاة لسمات معينة كالبشرة البيضاء الناصعة والوجه المدور ، والجسد الممتلئ، والصدر البارز، والمؤخرة الممتلئة، ففي بلدنا نركز مقارنة بالبلدان الأخرى على مناطق الغريزة، المناطق التي تشعرنا بالشهوة والنشوة والرعشة، وتجعلنا نحتلم صغاراً كنّا أم كبا ارً، رجالًا أم نساء.

صحيح وقتها لم أعلم ما اقترفت من ذنب لتشوه صورتي لدى والديَّ، ومن حولي، فقد كنت صغيرة جداً ولا أذكر شقيقتي التوأم على الإطلاق، لا أذكر سندي وظلي، وصورتي المنعكسة في المرآة، التي طالما تمنيتها وسعيت إليها واشتهيتها، جل ما خطر ببالي أنَّ أمي لم تعد تحبني كما كانت، أو ربما كانت تهتم بي لأنني فقط توأم أمنية، واكراماً لها كانت تضفي عليّ بعضاً من حنانها، أمّا باختفاء أمنية فلم أعد ذات نفع أو قيمة، بتُّ مصدر حزنها وتعاستها، تنظر إليّ لترى في وجهي صورة أختي المعذبة الجائعة الضائعة، فيصيبها الأسى وتهوي كورقة شجرة خريفية برتقالية تمزقها رياح الألم وترمي بها بعيداً.

ولكي أمحو عنّي صفة النفي، أصبحتُ أكثر قرباً لأمي وأكثر تعلقاً، التصـقتُ بها التصـاقاً ربما لتغفر لي خطيئة لم أرتكبها ولم أعلم بها ولا أذكرها، أو لأبعد عني شـعور غير واعي يسـيطر عليه الخوف والقلق من مصير مجهول ينتظرني كمصير أختي، فقد عانيت كثيراً باختفاء أمنية،أصـبحت كثيرة البكاء، وكثيرة الخوف، ألاحق والدتي أينما تذهب كظلها، أسـير وراءها كأثر تخلفه على رمل حارق، أتبعها حين تطبخ وحين تنظف وفي الحمّام وعلى السـطح، أتعلق برقبتها، وأجلس على حضنها وأدفن وجهي بجسدها وأنفي بصدرها لأشـتم رائحتها، فيستكان خوفي، وتهدأ مشـاعري المتوهجة، وحين تدفعني عنها بعيداً أصـرخ مسـتنجدة، لتعود وتحملني وتعانقني من جديد، ويزداد تعلقي بها في حال وجود الغرباء الذين هم أقرباء لنا، لكنّهم في نظري غربـاء قـد يـأخـذوني بعيـداً عن أمي. ومع مرور الوقت أصـبحت أفضـل، إلا أنّ هذه الحادثة تركت في نفسـي أثراً لا يُمحى، وحين علمت أنّ لي أختاً توأماً دخلت غرفة والديّ مسـرعة متفاجئة وغضـبا من طريقة دخولي عليهما دون اسـتئذان، وأخذت بالبكاء والعويل، فحملني والدي وضـمني إليه وأخبرني أنّنا نتحدث عن شـيء آخر وأنّ ما فهمته كان خطأً، وبالطبع ينسـى الطفل ما حدث ربما شعورياً لكن، في اللاشعور تبقى آثار هذه الحادثة عالقة لا تمحى بل وتصبغ الشخصية وتسيطر عليها دون وعي من الفرد، فتؤثر على قراراته وسلوكياته وطريقة حياته، ويصبح الفرد شخصاً

مختلفاً تماماً عمّا كانه قبل هذه الحادثة، ولو أنّ الفرد قد عالج هذه الحادثة بوقتها ولم يتركها، لمّا نمت آثارها واستفحلت.

منذ تلك اللحظة لم أعد أذكر لوالدي شـيئاً عن أختي التوأم، فقد فهمت أنّ بـالأمر ســـراً ، ويتوجب عليَّ وعليهما إخفاؤه، وما ســـاعد في التخفيف عني أخوتي ومشاركتهم لي في اللعب، خاصـةً أخي الصـغير سامي، الذكر الوحيد على البنات، آخر العنقود.

ومنذ وفاة جدي، ووالدتي لا تكف عن ذكر محاسنه وصفاته وبطولاته.

وباتت أيام طفولتها هي الحاضـرة معها وصـديقتها وظلها في الصـباح وفي المساء.

كانت والدتي بتذكرها لأدق التفاصـــيل عن حياة جدي، كأنها تحييه من جديد في قلبها وفي العالم الفاني.

ذاكرة عائلة

كان البيت يضج بالحياة، مليئًا بالأصوات والحركة، كخلية نحل "لا تهدأ."
إيزابيل الليندي، بيت الأرواح

فقد كان جدي رجلاً مكافحاً يعمل النهار بطوله لتأمين لقمة العيش الحلال، وجدتي تعمل معه في صنع الكراسي وتقوم بأعباء المنزل بأكملها من غسيل الملابس وكويها وترتيبها وتنظيف الصحون، والاعتناء بالمنزل والأطفال، إلى الطهي وإعداد وليمة كبيرة تكفي تسعة عشر نفساً يقيمون في المنزل.

ترتيب والدتي بين أخوتها السادس وهي تقع في الوسط ضمن العائلة فلا هي الكبيرة ولا هي الصغيرة، إلّا أنّ عائلة والدتي تجمع ما بين جيلين.

فالأخوة الأكبر عمراً حين بلغوا سن الرشد، كان الأخوة الأصغر ما زالوا في مرحلة الطفولة المبكرة.

أسرة أمي مؤلفة من تسعة عشر طفلاً : ثمان فتيات، وتسعة فتية، وهم من الأكبر سناً يوسف وعلي وخالد وعثمان ونديم وصباح وديبة ودولت ووليد ومريم وريـاض وأديبة وحنيفة ونوران ومحمد وأحمد وأيمن.

وقد توفي لهذه العائلة ثمانية أطفال، يوسف وعلي ومحمد وأحمد وديبة

وأديبة ودولت وعثمان، محمد وأحمد وأديبة ودولت وعلي وعثمان توفوا عند الولادة مباشرة.

أما الصغيرين يوسف وديبة فقد توفيا بعمر الزهور, الصبي " يوسف " توفي وهو في العاشـــرة من عمره وكان الطفل الأكبر في العائلة والمفضـــل لدى أبويه، حيثُ كان حنوناً ولطيفاً وشـديد الذكاء وكلُ من رأى محياه أعجب بحســـن طلعته وجمال حضـــوره وقدرته على الفصاحة.

إلّا أنّ القدر خطفه من بين عائلته لتنتهي رســـالته قبل أن تبدأ، أمّا الطفلة الأخرى فتدعى " ديبة" وهي تصغر يوسف بأربع سنوات فقط وكانت في السادسة من عمرها، نهمة وشديدة الشراهة ومرحة وكثيرة الضـــحك، فكانت فرحة العائلة، وكانت تشـبه يوسـف كثيراً في جمال وحســـن طلعتها بل ربما فاقته حســـناً وبهاء، إلّا أنّ الحمّى أصـــابتها وجعلت جسدها الصغير الضعيف هزيلًا لا يقوى لا على الطعام ولا على الضحك، إلى أن انتهت مقاومتها للمرض وفارقت الحياة.

كانت صدمة العائلة كبيرة بوفاة الطفلين، حيث عانت جدتي فترة طويلة حتى اســتطاعت تجاوز هذه الصـــدمة والعودة للحياة من جديد، وربما وجود طفلها الكبير خالد قد خفف عنها كثيراً، فكان كمنحة أعطيت لها من السماء تعويضاً عن مصائبها .

هذه العائلة كانت تقطن غرفة كبيرة في منزلٍ ضـــخم مليء بالغرف وكأنه فندق، تعود ملكيته لخال والدتي " أديب " ، وهو ذو شـــخصـــية جدية وواثقة إلى حد الغرور.

لكنّهم لم يلبثوا فيه سـوى بضـع سـنوات حيث انتقلوا لمنزلهم الخاص الذي شهد معظم مغامرات أمي في طفولتها ومراهقتها، إلى أن تزوجت في الثالثة والثلاثين من عمرها وانتقلت لمنزل والدي.

كانت أمي مختلفة عن أخواتها، مرنة سلسة في التعامل وتستطيع اقناع الجميع بما تريد، أرادت تعلم مهنة الحياكة ولذلك قررت عدم متابعة دراستها، واستطاعت بفترة تقل عن ستة أشهر تعلم المهنة وأصبحت أشهر حائكة في المنطقة كلها.

لكنّها بعد زواجها توقفت عن مزاولة المهنة بأمر من والدي الذي منعها من أن تخيط أو تحيك الملابس لأحد خارج عائلتنا الصـغيرة، كان يعدها نوعاً من العار أن تصنع ملابس لغيرك وكأنك خادم لديهم.

أمّا أخواتها، فسأبدأ بالحديث عن رياض التي كانت تلقب بـ " كلاي " المصارع المشهور في تلك الفترة الزمنية.

لشدة سمنتها وعرض منكبيها وصدرها البارز، وهذا جعل منها مصدر سـخرية لكل من يراها، فقررت الزواج بأول شـخص خاطبٍ لها، ولذا ما إن أصبحت في السادسة عشرة من عمرها حتى تزوجت بشخص يكبرها بعشرات السنين، هرباً من أخواتها ومن لقبها الذي أثار لديها مشاعر النقص،

لكنّها لم تلبث أن طلبت الطلاق بعد سـنة واحدة فقط، فلم تسـتطع الاستمرار في الحياة مع شخص يستعبدها كأنّها خادمة ويضربها كل ليلة .

لتعود من جديد لحضن العائلة المشوه، ولحديثهم الذي يزيد النقص في

النفس، ويرفع من الاكتئاب، ويدفع بهرمون التشاؤم للحدود القصوى.

فاخوها " نديم" كان الأكثر عطاءً في مدحها، فيصف فيها فمها الكبير وعينيها الصغيرتين وبدانتها وأنفها المدور، ولا يكتفي بالحديث فيشير بأصابعه الطويلة النظيفة للغاية والناعمة مشكلاً إشارات جميلة تدل على الصفات وتوضحها.

عادت رياض لمنزل عائلتها وهي مكسورة الخاطر والجناح، وما إن أتمت عدة الطلاق حتى تقدم لخطبتها قريب للعائلة من طرف بعيد، كان رجلًا فقيراً، ولكنّه يحب الطعام والحياة هكذا بدا لها، وفي نفس عمرها، لذا لم تتردد لحظة في الموافقة على الارتباط به، لتبدأ معه حياة غريبة وشاذة نوعاً ما.

فقد كان يحب ممارسة الحب معها يومياً بل أكثر من مرة في اليوم الواحد ويستخدم معها كل ما يجده أمامه من أدوات من عصا، لكرات صغيرة، لأدوات مطبخ ، وغيرها ليشبع نزواته الغريزية التي تسيطر على عقله وكامل حياته، فلم يراع حرمة ليوم مقدس ولم يراع زوجته ومشاعرها ولا حتى تأوهاتها وصرخاتها وتألمها من ممارساته الغريبة.

وكان يرغب بها في كل الأوقات حتى وان كانت تنظف الأرضية أو تجلي الصحون أو تطهو الطعام، بل كانت هذه اللحظات بمثابة الحافز لغريزته ونشوته الغريبة.

وان رفضت يرغمها على ذلك ولا يدعها حتى يعطيها حقنته ويسمع صرخاتها، مخلفاً وراءه آثاراً وبقعاً على الأرض وعلى الجد ارن وفي كافة أرجاء المنزل، وقد نتج عن ممارستهما الشاذة طفلة غريبة ، لم

يتســـع لها الوقت لأتعرف عليها، ولم يســـمح لي القدر بأن أراها، فقد توفت قبل ولادتي بأشهر.

أســموها " لينا " ، وقد عاشــت هذه الطفلة مع هذين الوالدين الغريبين سـبع سـنوات، تمنت في كل لحظة من هذه السـنين لو أنّها لم تأتِ على هذه الدنيا ، ولم تراهما ولم تنشــأ في حضــنهما، وربما حين غادرتهما كان رجاؤها ألا تلقاهما في آخرتها لا ســعداء ولا حزانى، أمّا قصــتها فسأسردها على لسان لينا متخيلة حجم ما عانته:

ولدت في يوم خريفي ربيعي، لا برد فيه ولا حر، مع نســـمة عليلة ورطوبة جميلة، وزخات مطرٍ بديعة على جنبات الطريق، تطرق نوافذ وقراميد المنازل معلنةً قدومها.

في ليلة .... ذلك اليوم المشـؤوم صــرخت رياض صــرخت يُدمى لها الفؤاد، واسـتمر صـراخها الليلة بطولها، وكانت تسـاندها قابلة نسـائية تدعى " أم سعيد ".

تشدُّ من أزرها وتطمئنها وتقول لها:
" عيني ولدك يا رياض ... شارفت على الولادة."

ولدت ولم يفرح بي أحد، ولم أعني شيئاً لأحد حتى والداي، فكنتُ أشبه بذلك أي قطعة أثاث يشـتريها الفرد لتلبية حاجاته أو لأنّه من المفروض أن يحضـــرها فقط، فمن وجهة نظر الأب " محمود " زوج رياض، لا يُعترف برجولية الرجل حتى ينجب أطفالا.

ورغم كل تحـذيرات الأطبـاء لريـاض بـألا تنجـب في المنزل؛ إلّا أن زوجها رفض نقلها للمشفى، وقال لها:

" إنّها خزعبلات أطباء .. فقط ليجعلونا ندفع لهم المال. "

كان رباطهما مقدساً تحت عيون الأشهاد وبمباركة جليلة من المحبين والأقرباء، لكن بعد أن تمت المراسم وقفلت الأبواب والتصقت الأبدان واختلطت القطرات ،واستخدمت كافة الأدوات من خشبٍ وحديدٍ وخيطانٍ ومطاط، ودخلت المياه وأغارت فندقاً داخلياً عميقاً، تكونتُ وأصبحت نزيلة رحم أمي..

وبمرور الشهور ظهرت الحقيقية وأسدل الستار، وأخبر الجميع بمن أكون، وكيف سأكون، وصبغت جبهتي بعنوان حياتي وبطيف توحدي.لم تكن هذه الحقيقة سوى صدمة لعقول صغيرة لا تفهم معنى الأمومة والأبوة، فاتفقا ذات ليلة أن يتم كل شيء سرا، وحين تأتي اللحظة الموعودة وينتهي كل شيء، يُقال للجميع لم تستطع القدوم، لم تكن سوية، وتشهد عليهما عيونهما الباكية الدامعة قسرا.ثمّ ترمى في مغارةٍ نائية وتترك ليفعل بها الزمن ما يشاء.لكن!، في تلك الليلة حدث ما لم يكن بالحسبان، فلم تعد المغارة ترغب بدمٍ آخر، فبعثت بمجهول ليكون ممحاةً للنسيان، فيجدد ذاكرة ويصحح الخطأ. وهكذا عادت مطأطأة الرأس تحمل بين ذراعيها عارها الصغير، فاستُقبلت بالشتائم والضربات والعويل والصراخ، وبعد ساعات وساعات من المشاحنات، تمّ الرضوخ وتقبل الأمر. كنتُ كمرضي كالطيف لا يراه أحد ولا يشعر به أحد، ألقيَ بي في إحدى زوايا غرفةٍ مهجورة، كخرقة بالية مهترئة وعديمة النفع ،يرُمى إليها بزجاجة ماء ملوث قذر من باب هذه الغرفة خوفاً من العدوى.

كنتُ أسمع صوتي فقط يرتدُّ عبر جدران قفصي، صوت الألم وصوت الجوع، وألامس برأسي ما حولي عليّ أنفذ من خلاله لأرى النور الذي افتقدته. كانت سمائي خشباً متفرقاً تعبث من بين ثقوبه الفئران،

وأرضي باردة قاسية تعزف على أوتار جسدي فتمزقها إرباً إربا. ومع أنّي أكره التجديد والتغيير بطبعي، إلاّ أنّني كرهتُ غرفتي الرتيبة المملة، بلونها الرمادي الباهت، وجوها الخانق المشبع بروائح القاذورات المتيبسة على جسدي.

ومع الأيام اكتست غرفتي ثوبها الأصفر الجديد ،يزداد مقاسه كل يوم، دون أن يلحظه أحد أو يزيله أحد.

بتُّ حبيسة خوفي وألمي وحزني وغربتي، ويكأنّ الله عز وجل أرادني خليفةً للنبي أيوب عليه السلام ،لأمثل أيقونةً للصبر والرضا. تتالت الشهور والسنين وأنا عجينة النسيان ،لدرجة أنني لم أعد أتعرف على جسدي ،فقد اتخذ له قناعاً وحشياً مشوهاً، لم يكن صانعه مبدعاً بل فوضوياً، فلا اليدين في مكانهما ولا القدمين، ولم تعد العين تميز انسياً بل غولاً منسياً، يخرج منه ديدانٌ صغيرة اتخذت من جسده منزلاً ومسكناً لها.

الآن، حانت اللحظة يا أمي ويا أبتي، أشعر بنفسي أستطيع الكلام رغم قضبان الحديد التي غلفت فمي سنيناً وأياما، لا أعرف ماذا أقول لكما هل أقول لماذا؟، أم أعاتبكما؟ أم أصرخ وأملأ الكون عويلا؟ أم أصمت؟

يقولون أنني لا يمكنني الاستجابة حين مناداتي باسمي، هل حاولتما مناداتي؟ أم أنكما رميتما اسمي في قمامة مشاعركما؟ ومع هذا أحببته، أحببت اسمي، كان كالسحر حينما سمعته من فمِ شخصٍ صادقٍ في مشاعره نقيٍ من داخله، لينا..الآن.جاءني من يحبني،من يريد معانقتي واحتضاني، من يخاف عليّ، من يقلق لشأني، جاءوا محملين بالورد والعطور، وبيدهم ملاءة ناصعة البياض، أرادوا جعلي شبيهةً لهم في

نورانيتهم.

الآن شـعرتُ بالدفء بعد أن أضـناني البرد يا أمي، فقد ألبسـت ثوب الحب والحنان، ولأول مرة أشعر بأنني موضع اهتمام بعد أن كنتُ في غياهب النسيان.

ولهذا نشـأت لينا مشـوهة عقلياً تعاني من التوحد ، والتخلف العقلي، لم تسـتطع المشـي ولا الحبو ولا الزحف، ولم يرغب والداها في الاهتمام بها والسـعي لتربيتها تربية صـحيحة، ولم يرغبا حتى في الانفاق عليها ولو قرشاً واحداً) وهو مبلغ قليل جداً من المال في مجتمعنا(

كانوا يقولون لها: "حرام أن ندفع عليك ولو مبلغ بسيط من المال.... لا أمل يرجى منك."

وبعد مرور شـهور وسـنين على وضـع لينا المتدهور وتفاقم حالتها لم يعد الوالدان حتى يقدمان لها الحليب إلّا بمقدار بسـيط جداً ومرة واحدة في اليوم فقط ، وكانوا يرمون بزجاجة الحليب في وجهها وهم يقفون أمام باب غرفتها، فقد أغلقوا عليها باب العذاب وباب غرفتها كي لا يعلم أحد من الجيران بها، فكانت بعجزها وضـعفها وجوعها الشـديد تحاول جاهدة للإمسـاك بزجاجة الحليب لكنّها كثيراً من الأوقات لم تنجح في الامساك بها، فتصـرخ وتبكي بكاءً يهتز له عرش الرحمن، لكنّ قلوب والديها لم تحرك سـاكناً، وانّما كانت من القسـوة بحيث فاقت قسوة الحجارة.

حيث يغلقون عليهم باب غرفتهم ويتابعون ألعابهم الجنسية القذرة وهم يضـحكون، فقد اعتادت رياض ممارسـة الحب بقسـوة مسـتمتعة بكل أفعال زوجها بها، بل حتى اسـتهوتها ما كان يفعله بها، وباتت تعدّه

طريقة جميلة للتعبير عن الحب والشهوة.

أمّا الصغيرة لينا فلم يسمعها أحد، وكان سقف غرفتها هو كلُ عالمها، فكانت تبقى على الوضعية ذاتها ممدّدة على ظهرها أسبوعاً وربما أشهر، رائحتها تملؤ الغرفة، فملابسها لا تبدل وانّما تبتل بمائها ومن ثم تجف لوحدها، أو تتلوث بغائطها ليصبح كقشرة سميكة يكسيها من الأسفل، ليصدر صوتاً كلما حاولت أن تميل يميناً أو يسارا.

وفي كل صباح يفتح لها باب الغرفة ليطل والديها ويلقون نظرة سريعة على زجاجة الحليب، فإن وجدوها مليئة بالحليب أغلقوا الباب، وإن كانت فارغة اضطروا للدخول متأففين من رائحتها ليملؤوها لها.

ومع كل يوم تزداد تقرحات جلدها لتنزف دماً، ولتسكنه الديدان فتخرج منه وتدخل دون أن يوقفها أحد، ومن ثم تضاءل جسدها وضمر، فلم تعد لها قدمين كالبشر فركبتيها كانت بمحاذاة رقبتها ويديها ملفوفتان للخلف.

لم يواسيها سوى دموعها، التي كانت كثوب اعتادت ارتداؤه ليقيها من كل هذا الشر والألم، إلى أن حانت لحظة رحيلها لتسكنها السعادة والراحة اللتان لم تشعر بهما أبداً طوال السبع سنوات التي عاشتها.

لقد أخبرتني خالتي رياض بقصة ابنتها وكانت شديدة الندم، لكن ما نفع الندم بعد كل ذلك الألم الذي عانته لينا.

لكنْ، ما لبثت قصة لينا أن دفنت تحت قبر النسيان، ولم يعد لذكرها أي مبرر، وعادت الحياة بالنسبة لرياض ومحمود كما اعتاداها سابقاً، عمل وتنظيف وطهو وممارسة الحب المشوه بطريقتهم الخاصة.

لينجبا بعد ذلك " نور الصبي المشاغب شبيه والدته وحبيب قلب أمه، ومن ثم الطفلة الثانية " رزان" حبيبة قلب والدها وشبيهته وخاصة بلون بشرتها البيضاء الصافية، ورغم أن الاثنين قدراتهما العقلية قليلة إلى حد ما لا تتعدى السبعين درجة، حيث لم يتمكنوا من متابعة دراستهما ليخرجا من المدرسة وهما في الصف الثالث الابتدائي فقط ، إلا أنهما تميزا بذكاء اجتماعي عالي.

أمّا خالتي الأخرى فتدعى " حنيفة " وكانت حياتها مليئة بالكثير من الحزن والألم، فقد عاشت طفولتها وهي منبوذة من الآخرين فقد كانت شديدة السواد ، وهذا جعل الآخرون يلقبونها " سوداء" ليزداد وضعها سوءاً، وتعقيداً، وليضاف لعقدتها الكبرى وهي اسمها، فلم تكن تحب اسمها أبداً، وكانت تصرُ على أن ينادونها ب" حنان" وليس حنيفة، ولم يكن أحد يستمع لها أو يلبي رغباتها، وهذا ما دفعها لترك المدرسة والبقاء في المنزل، ونظراً لأنّها كانت في نظر العائلة الفتاة البشعة التي لا أحد ينظر إليها، أو يرغب أحد من الرجال في التحرش بها، فكانوا يدفعونها لتحضر حاجيات المنزل عوضاً عن الفتية، ومهما كان ثقل الأشياء التي تحضرها فلا أحد يساعدها أو يقف معها.

ففي عائلة جدي، مقياس الجمال هو من أهم المقاييس في العالم، ربما ليس فقط في عائلة جدي، بل في أرجاء العالم، فالجمال مقياس ثابت تجده أينما ذهبت في الصين، في الهند، في الفلبين، أو في أوروبا، فبالتالي هذا المقياس سيحتل الجزء الأكبر في بلدٍ نامٍ كبلدنا سوريا، لا يقارن بالبلدان السابقة ذات الحضارة والعلم والثقافة، لكن في مجتمعنا المحلي يؤخذ الجمال ويحدد بامتلاك الفتاة لسمات معينة كالبشرة البيضاء الناصعة والوجه المدور ، والجسد الممتلئ، والصدر البارز، والمؤخرة الممتلئة.

وربما نعد البلد الأول عالمياً في المقارنة بين نسائنا وفتياتنا.

كبرت حنيفة واستمرت حياتها من بكاء لآخر حتى تزوجت بشخص يعاني من شلل الطفولة، ورغم وضعه الصحي، إلا أنّه وجد نفسه يستحق زوجة أفضل منها بكثير، فغاب فترة بعد رؤيته لها تجاوزت السنوات، ليعود إليها بعد أن رُفض من قبل الكثيرات من الفتيات، لتستمر معه في الحياة كزوجة مهزومة وقليلة القيمة، فكان يعاملها كخادمة وكوعاء ممكن أن ينجب له الأطفال، فقد أنجب طفلين، رباهما على أنّهما أفضل الأطفال جميعاً لدرجة الغرور، وغرس في عقولهما أن دور والدتهم يقتصر على كونها خادمة لهما فقط.

الصبي كان الأكبر ويدعى" عماد" ويتصف بأنه طفل عدواني لدرجة كبيرة جداً ، وكثيراً ما أوقع نفسه في مشكلات مع أهل الحي لضربه أبناءهم أو سرقة ممتلكاتهم أو تخريبها أو إزعاج الجوار بصراخه أو ركله على أبواب منازلهم صباح مساء، ولم يكتف نشاطه العدواني خارج المنزل لينقله لداخل منزله، فبات يضرب أخته الصغيرة وبعضها ويمزق ثيابها، والوالد يشجعه على ذلك من باب تربيته لأخته وأنه المسؤول عنها بحكم أنه سيصبح رحل، وتطور الموضوع لتصبح الأم هي مادة الضرب لهذا الصبي، ووسيلة تفريغ لشحناته السلبية.
أما الصغيرة فتدعى " علا" ربيت دون أي مبدأ أو أسس، فقد كان الضرب هو معلمها، الذي إلى الآن وبعد أن أصبحت كبيرة في العمر ومتزوجة لم تفهم لماذا ضربت وما سبب ضرب أخيها لها؟، وربما هذا الضرب هو من جعل منها مجبولة على الحقد والأنانية والكره، فما إن بلغت، حتى اختفت من المنزل وأطلقت العنان لنفسها، وشرعت أجنحتها لتغادر عشها الصغير البائس وتنتقل لعش آخر يملؤها بالحب الذي لم تشعر به يوماً ، وبالطبع هذا ما استطاعت القيام به لأن والدها قد توفى قبل ذلك بسنوات.

ولم يصـــلنا أخبار عنها إلا بعد فترة طويلة من الزمن، وعن طريق جارة كانت تسكن بجوار منزلهما، شاهدتها في أميركا مصادفة، لتعود للوطن وتخبر والدتها أنها التقت بابنتها وأنها متزوجة.

ولننتقل لنوران هي خالتي الصـــغرى ودلوعة العائلة، فلا يرفض لها طلب، ولا يتم جبرها وضـــغطها على شـــيء، فلا هي نجحت في مدرسـتها ولا اسـتطاعت تعلم الخياطة، لتبقى في المنزل تهتم بنفسـها وجسـدها فقط، لتتزوج بشـخص في عمرها لكنّه عقيم، ورغم معرفتها بعقمه وموافقتها على الزواج منه برضـاها دون إكراه من أحد، إلا أنها كل يوم تحسـب عمر طفلها الذي لم يأت إلى هذه الحياة، وتلعن وتسـب اليوم الذي تزوجت به من هذا الرجل العقيم على حد قولها.

وزوجها الغريب المختلف شكلاً ومضموناً، يجاريها في حساباتها، كان يدعى " أمين" ، ولم يكن له من اســـمه نصـــيب، فلا هو أمين على زوجته ولا على مالها ولا على كلامه أو كلامها، بل يمكن القول لا يؤتمن جانبه أبداً.

والحياة بالنســـبة له لعبة رمزية، كل ما فيها يرمز للجنس، ولولا أنه لم ينل سوى الإعدادية، لقلت أنه وريث العالم النفسـي الملقب بأبو التحليل النفسي " فرويد" ، لشدة اقتباسه من كلامه، فإن أنت ضـحكت فسلوكك هذا يعد رغبة في اسـتثارة الآخر ، وإن وقفت أو جلسـت، فكلها تشـير لرغبة جنسية خفية.

لم يبق من فتيات العائلة سوى الفتاة الكبيرة بينهن " صـباح" والتي تعد حكايتها من أنجح القصص، فهي كانت نصف عمياء، ولدت بعين ميتة وأخرى سليمة، وكانت شديدة النحول، وبارزة العظام والعروق.
لكنها لم تســـتســـلم ثابرت وتخرجت من الثانوية ودخلت معهد لإعداد

المدرسين، لتصبح أستاذة ثم مديرة لاحقاً.
وتبنت المهنة وشـــربتها حتى باتت تجري في عروقها، فأينما جلســـت صـــباح عاملت من حولها وكأنهم طلاب لديها، ســـواء أكبر منها أو أصغر.
والويل لمن خالفها في الرأي، فهي مع علمها وثقافتها قد وصلت لأعلى قمة، لم يصل إليها أي فرد آخر من العائلة.
وربما هذه الصـفات العظيمة التي تمتلكها كانت السـبب الوحيد في عدم زواجها، لتســـتقر لاحقاً في منزل أخيها الصـــغير أيمن مع زوجته وأولاده.

هذه الشخصيات الأنثوية في عائلتي كان لها دوراً كبيراً في حياتنا، بل وحتى في طريقة تفكيرنا.

أما أخوالي الأعزاء، فالحديث عنهم يطول كثيراً، لذا ســـأختصـــر وسأوجز لكم المفيد....
الأكبر منهم ويدعى " خـالد"، كـان خـالد للعهد، خـالد للحب، خـالد للخضوع لزوجته، خالداً في كل شيء يخص زوجته وأولاده.
أما أمه وأخواته فكان كالمفارق، أو الغريب الذي لا يعلم أو لا يريد أن يعلم عنهم شيئاً.
هل هم في صحة أم مرض؟ هل يحتاجون المال أم لا؟.... إلخ.

منذ أن بلغ سن النضج في الثامنة عشرة، وهو يرفع راية زوجوني وإلا رحلت وغادرت المنزل دون عودة.
فاضـــطرت جدتي ... والدته.. أن تبحث له عن زوجة، ونظراً لثقته العميـاء في جمـالـه فلم يكن يعجبـه العجـب، وكثيراً مـا انتقد الفتيـات اللواتي كانوا بمثابة عينة جيدة للخطبة من وجهة نظر جدتي.... أما بالنسبة له، فهذه طويلة أكثر مما يجب، وهذه قصيرة، هذه سمراء، هذه

ســـمينة، هذه ذات عيون صـــغيرة، وتلك فمها كبير.... وهكذا لا فتاة تعجبه.

إلى أن تعرف على رجل كان بائعاً للملابس، في الخمســين من عمره، لبق ومتحدث وأنيق وذا ســـمعة حســـنة، عرض عليه الرجل لمحبته لخالي خالد أن يزوجه ابنته، فوافق دون اعتراض نظراً لإعجابه الشديد بوالد العروس.

تزوج خالي في منزل العائلة، وخصـــصـــت له غرفة منفردة وجهزت بأفخم الأثاث، كانت الزوجة تدعى ســامية، وبها من الحســن ما يجعلها تنال إعجاب من حولها، لكن لم يشـــأ القدر أن يعطيها كل شـــيء، إذ حرمها من الإنجاب، فكانت عاقر في نظر المجتمع، ولا نفع منها في نظر جـدتي، التي ألحـت عليـه مراراً وتكراراً ليتزوج عليهـا زوجـة تنجب له الأطفال ، كي يكونوا عوناً له في كبره وحين مرضه.
وبعد مد وجذر، وافق خالي على الزواج بأخرى، وكانت تصغره بعشر سنوات، نشيطة وممتلئة وجميلة إلى حد ما، ولكن ما يميزها أنها كانت راقصة.
وبغنجها ودلالها أسقطت الملكة السابقة عن كرسي الحكم، لتصبح هي الملكة، حيث طلق خالي زوجته سامية، وأصبحت سمر الزوجة الحالية هي الأولى والأخيرة.
تملكت ســـمر قلبه وعقله، ومن هذه النافذة بدأت المشـــاكل في منزل العائلة، وكان خالي دائماً يقف إلى جانبها وإن كانت على خطأ، وربما وجود سمر في حياتي أمي وخالاتي، هو من كان السبب والدافع الأكبر لهم ليتزوجوا زيجاتهم العظيمة والرائعة.

وحظي خالي أخيراً بالأطفال، من الأبناء اثنين " بشـــار وبلال"، ومن البنات اثنتين " بيان وبشرى".

وهم كانوا أكثر الناس عوناً له في مرضـــه، حيث لم يرى خالي على الإطلاق وجه أي منهم، حين مرض بسـرطان الرئة لاحقاً وتوفي على إثره.

أما خالي نديم، فكما كلمتكم ســـابقاً كان أكثر الناس اهتماماً بأخته رياض، وكثيراً ما عبر لها عن جمال ملامح وجهها وجسدها بالكلمات الرقيقة والإشـــارات اللطيفة، ولم تكن رياض الوحيدة التي حظيت باهتمام خالي نديم، بل حتى خالتي حنيفة التي أطلق عليها الكثير من الألقاب الجميلة، السـوداء، أم نصـف لسـان ... وربما هذا لأنها كانت تبدل الحروف حين تتكلم، فبدلا من اذهب كانت تقول ازهب، أو اذهل... أو السين بدل الجيم ... وغيرها من الألقاب والصفات الحميدة.

وبهذا كان نديم ناقد العائلة ذو النظر الثاقب الذي لا يخيب، ورغم أنه ظل عاطلاً عن العمل حتى بلغ الثلاثين من عمره، وهو يأخذ مصروفه من أخواته الفتيات، أو يسرقه إن لم ترضين إعطاءه، ومع هذا فلم تسلم أختاً له من كلامه الجارح ولسانه القاسي.

حتى تزوج من أرملة رغم صغر سنها، وعاش معها سنوات وسنوات دون تفاهم ودون أي محبة، ومع هذا أنجبا خمســـة أطفال، فتاة وحيدة هي ابنتهما البكر وتدعى فاطمة، وأربعة أبناء عوض وإلياس وآدم وعبد الرؤوف.

وجميع أســـماء الأطفال كانت رؤى تأتي للأم في المنام، هذا ما كانت ترويه علينا زوجة خالي نديم والتي تدعى " كوثر" كلما اجتمعنا بها، حتى بتنا نحفظ حديثها بتفاصيله الدقيقة.

وكوثر كانت كريمة ومعطاءة، ليس بالمال كما ظننتم، ولا حتى

بالملابس أو الادوات، وإنما كانت معطاءة في حليب صـــدرها، فكلما رأت صغيراً يبكي من عائلتنا وضعته على صدرها وأرغمته ليرضع منه، حتى بات أبناء العائلة جميعهم من أبنائها.

وإلى اليوم لا نعلم ما إذا كانت الرضـــاعة كافية لتحرمنا عن بعضـــنا البعض، أم أنها لا تشـبع الصـغير، وبهذا يمكن لابنة الخال أن تتزوج من ابن خالها، ومع هذا فقد حرمنا بعضنا عن بعض بإرادتنا، لا لشيء فقط لوجود الكره والحقد والقسوة والبغضة بين أفراد العائلة.

ولأنتقل لأحدثكم عن وليد، خالي الذي يلقبونه بزير النســاء، فلم تسـلم منـه فتـاة في الحي أو في الأحيـاء المجـاورة، بـل حتى في المنـاطق البعيدة، فأينما ذهب يغازل الفتيات ويتحرش بهن، ويكتب لهن القصـائد ويرميها أمام منازلهن.
ولم تكن تكفيه امرأة واحدة، ومع هذا كانت زوجته له بالمرصـــاد ، فكلما اســـتطاع نيل موافقة فتاة على الزواج به رغم أنه متزوج ولديه أبناء، حتى تذهب زوجته والمدعوة سناء لتفشل خطته.
وهكذا سنوات وسنوات، ومع مرور خمسين عاماً على زواجهما وما زال خالي رغم ضـــعفه وكبر ســـنه يغازل الفتيات ويتمنى أن يقبلنا بالزواج به.
وكان أكثر الأخوة أبناء، من الأبناء " أحمد ومحمد وســـامر وماهر" ومن البنات" سحاب ورشا ونورا ورنا".

أما صـــغير العائلة أيمن، فكان طيب القلب، كريماً، خلوقاً، لا يشـــبه أخوتـه، ترعرع في دور العبـادة وتعلم علوم الـدين وحفظ أحـاديـث الرسول ص، حتى بات شبيهاً بأخلاق سيدنا محمد.
تزوج وأنجب أربعة أبناء " يوسف ويامن ويمام ويزن".
ورغم شـــدة إيمانه وتدينه لكنه ابتلي بزوجة غريبة أنانية محبة للمال،

أرغمته على السفر لا لشيء فقط ليحضر لها سيارة شبيهة بسيارة جارتها سعاد، ومنزل شبيه بمنزل جارتها ريما، ومصاغ من الذهب يلمع في يدها كما يلمع في يد سلفتها سناء.

وهكذا حتى يومنا هذا وهو يعمل خارج البلاد ليحضر لها متطلباتها الكثيرة التي لا تنتهي.

وبينما كانت حياة والدتي مريم تشوبها بعض الشوائب، إلا أنها بالتأكيد كانت أفضل حالاً من حياة والدي إبراهيم.

فقد عاش والدي وترعرع في كنف والدته فقط، يتيم الأب ويتيم الأمومة.
فحياة جدتي تعيسة ككثير من الفتيات التي ولدنا معها، زُوّجت وهي في التاسعة من عمرها، لشاب يكبرها بعشرات السنين، ثمّ توفى بعد زواجهم بفترة قصيرة، لتتزوج مرة أخرى من جدّي، الذي يكبرها بسنوات تتعدّى العشر، لتبقى معه أحد عشرة سنة، وتنجب منه ثلاثة أطفال، أكبرهم فتاة في التاسعة من عمرها، ويليها فتىً في الثامنة، ثمّ أبي في الثالثة من عمره.

كانت وفاة جدّي صدمة لها، عاشت خلالها صراعاً ما بين خوفها من مسؤولية ثلاثة أطفال، وخوفها من أمومتها الطفولية التي لم تولد بعد، فلم تعلم معنى كلمة أم ولا معنى كلمة أمومة ولا حتى كيف تهتم بصغارها.

فتكالبت عليها الظروف، ليتدخل بها من يشاء، من قريب وغريب، جار وصديق، والد وعم، لينتهي مصيرها بتقسيم هذه العائلة والتفريق بينها، حيث أُخذ منها طفليها الأكبر عمراً، ولم يبقوا لها سوى طفلها ذو

الثلاث سنوات.
تربى عمي وعمتي عند أعمامهما، أمّا الأم والصغير ، جدتي وأبي فقد عاشا تحت جناح خال جدتي وأولاده وسيطرتهم عليها، وبذلك لم يعد الصغير يرى أخوته ولم تعد الأم ترى طفليها، وهذا زاد من تعاستها وألمها.
وبذلك عاش هؤلاء الأطفال اليتم الكامل يتم الأب والأم، فاليتم كالسكين التي تُرمى فجأة على يديك فتقطعهما معاً، أو كنار مستعرة تهب فجأة في وجهك فتشوهه وتغير ملامحه، فلا العين تبقى مكانها ولا الفم، بل ربما اليتيم كلمة أقسى من ذلك كله.

عاش الصغيران، الفتاة وتدعى " خديجة " والفتى ويدعى " فهد " يتيمين الأب والأم، وعاش الصغير " إبراهيم " والدي يتيم الأب ويتيم الأمومة وليس الأم، فأمٌ بلا أمومة، كامرأة باعت رحمها لامرأة أخرى لتنجب لها ولتسكن خلاياها مضغة غريبة عنها، ثمّ لتلذَّ رضيعاً لا يشبهها في شيء تعيده لتلك المرأة دون أن تأخذ ثمناً على فعلتها.

عاملت جدتي " إبراهيم " كضيفٍ صغير فُرض عليها، فلا كانت أمّاً له ولا أختاً، لتتعايش معه كأي قطعة أثاث، كسرير، كخزانة، أو أي شيءٍ آخر.
فلم تحسن تربيته ولم تفرض عليه شيء ولا تضع له حدود لا يتجاوزها ولا تمنعه عن شيء.
كما أنّها عجزت عن أن تلبي له أي رغبة، مسلوبة الإرادة، فلا حنان ولا قسوة، ولا حرمان ولا عطاء.

وبهذا نشأ والدي " إبراهيم " لا يعلم الصواب من الخطأ، ربَى نفسه بنفسه، ترك المدرسة وهو في الصف الأول، ولم يمنعه أحد، عمل في محلٍ للحلويات، يكدح فيه طوال النهار، وهذا المحل كان لأخواله،

فعومل بقسوة كأي صانع بدوام كامل من الصباح حتى المساء وبمرتب قليل لا يكفي لشـراء بعض الطعام له ولوالدته، ومتطلبات عملٍ كثيرة، من كنس لتعليب الشـوكولا والسـكاكر في علب' إلى حمل هذه العلب وتوزيعها، إلى المسـاعدة في إعداد وصـنع الحلوى دون مراعاة لعمره الصـغير ذي السـبعة أعوام، كان يهرب أحياناً من المحل ليتمشـى في السـوق، فيتلقى عقوبة الضـرب والجلد على يديه وقدميه جراء فعلته، واستمر حاله هكذا كل يوم، فلا أمه تستطيع عمل شيء له ولا محادثة أخوتها وتوصـيتهم عليه ولا مجادلتهم في طريقة معاملتهم لطفلها، ولا هو كان بمقدوره مواجهتهم أو الوقوف بوجههم وهو غصـن أخضـر صغير.

إلى أن كبر إبراهيم وبلغ سـن المراهقة، واتخذ القرار بترك المحل نهائياً، وترك العمل لدى أخواله، ولم ينتظر موافقتهم، بل انتقل مباشرةً لمحل آخر لتصـنيع الشـوكولا يُدعى " داماس " يُعدُّ منافسـاً لأخواله، لينتقم منهم، وكان محلاً كبيراً وماركة مشـهورة في ذلك الوقت، وهناك أتقن صنع الشوكولا بشكلٍ جيد ، وشعر باستقلاليته واعتماده شيئاً فشيئاً على نفسـه وتحرره من سـيطرة أقرباء والدته، وهذا دفعه ليتحرر منهم في البيت كذلك ، ليهرب من بيت أخواله هو ووالدته ويسـتأجر منزلًا صغيراً في حيٍ شعبي، يستطيع دفع أجاره ممّا يكسبه يومياً.

ولم تكن مهنة الشـوكولا هي المهنة الوحيدة التي عمل بها والدي، بل تتالت المهن التي ارتادها وأتقنها، من سواقة إلى نجارة إلى تجارة حرة ، وحينما بلغ من العمر الثامنة عشـرة طُلب لخدمة العلم والالتحاق بالجيش، ليتلقى التدريب على فنون القتال والدفاع عن الوطن، كانت مدة خدمة العلم لا تتجاوز السـنتين ونصـف إلا أنّ الكثير من الشـبان يسـتهجنون بقاؤهم هذه المدة ويعتبرونها مدة طويلة يحرمون منها من كافة مظاهر العيش المرفه كما يسمونه.

ففي فترة التدريب تلك، يسافر الشاب ممّن بلغ من العمر الثامنة عشر

إلى إحدى القرى الريفية البعيدة ليقيم فيها بعيداً عن أهله، ودون وجود س ينام فيه، فالخيم هي مسـكنهم والأرض هي أسـرّتهم، أمّا طعامهم فبسـيط، يُعطى لهم كوجبة واحدة فقط يومياً يتناوبون فيها على الطبخ بأنفسهم، حينما ترسل إليهم كافة المواد الأولية الضرورية لإعداد وجبة طعام، أكثر ما يطبخ كان عبارة عن برغل أو رز وهذه كانت وجبة مميزة بالنسـبة لهم. ثمّ عليهم الاسـتيقاظ باكراً قبل شـروق الشـمس والاسـتحمام بماء بارد كالثلج، وإن كان الجو بارداً، وبعدها يتعرض لكافة أنواع القتال من قتال باليد إلى قتال بالسـلاح وكأنّه في معركة حقيقية، كما يتم تعليمه على التنكر والاختباء من العدو والتسلق والقفز وغيرها من المها ارت الضرورية للقتال في ساحة المعركة.
وبموجب ذلك يقضي السنتين والنصف دون رفاهية ودون حتى السماح له برؤية أهله، كما يتوجب عليه حلق كامل شـعره، وهذا كله كان بالنسـبة لأبي موقف لا يمكنه تحمله أو البقاء فيه ولو ليوم واحد، وهذا ما دفعه للهروب من الجيش، وبذلك لم يتمكن من الحصـول على هوية تثبت كامل حقوقه المدنية في مجتمعنا المحلي، فصـار طريداً وملاحقاً من قبل الشرطة والجيش لتهربه من واجب والتزام أساسي، وهذا منعه من الاختلاط بالمجتمع خوفاً من السجن، فارتأى أن يسكن هو ووالدته في منزل بعيد نائي في منطقة منعزلة عن السكان وعن الشرطة وعن العالم بأسـره، يحيط بالمنزل البسـاتين من الخلف، ومن الأمام العشوائيات والشوارع القذرة والأنهار المليئة بمخلفات البشر، واتخذ هذا المسكن مأمن له حتى وفاته.

إلّا أنّ ابتعاده وهروبه واختفاؤه في هذا المنزل لم يكن سبباً كافياً لجعله يشـعر بالأمان، وبذلك عاش معظم حياته قلقاً متوجسـاً من أن يتعرف عليه أحد أو يكشف أمره أحد، وهذا الخوف كان عاملًا أساسياً في دمار أسـرتنا بأكملها، وقد وُرث والدي هذا الخوف لنا، كلٌ منّا نال نصـيبه من الخوف والقلق والتوتر.

وقد استطاع أحد معارف والدي تزوير هوية له ليستطيع التوظف في إحدى مؤسسات الدولة، وهذا حينما بلغ من العمر سناً لم يعد يرغب فيه في الاستمرار بمهن عديدة ومختلفة، وذلك في متوسط العمر، وبهذا استقر ليكون موظفاً في مؤسسة زراعية، يعمل فيها على تصليح الأجهزة الميكانيكية، فدخلت هذه الوظيفة وشكّلت جزءاً أساسياً في روتينه اليومي.

الاستيقاظ مبكراً وتناول الفطور والذهاب للعمل ثمّ العودة منه وهكذا....

ومع ثبات مهنته اقتنع بفكرة الثبات الأسري بعد رفضه الشديد لموضوع الارتباط وتكوين الأسرة لسنوات وسنوات، ليتزوج أخيراً بوالدتي مريم لتصبح شريكته وبيت أسراره، ومن هنا تبدأ قصتنا قصة لن ينساها الزمن مهما طال ومهما تعددت السنون وتتالت الأيام والشهور.

وبينما تربى والدي في جو من الفقر والتعصب والظلم، نشأ أخويه في جوٍ من الحب والسعادة والرفاه المادي والنفسي والاجتماعي، حيثُ تكفّل بهما عم العائلة وهو رجل ثري أحب الطفلين وتبناهما كأنهما طفليه، فكانت طلبتاهما كلها ملباة، من هدايا وملابس وطعام ورحلات وسفر، كبرت عمتي والتحقت بالمدرسة للصف التاسع فقط حيث تزوجت من رجل غني هو قريب والدتي بمثابة " الخال " لها ويدعى " أديب "، بالرغم من أنّه كان أكثر ثقافة من عمتي وأكثر علماً فهو قد تابع دراسته الجامعية في كلية الآداب، وبالرغم من أنّه يكبرها بثمان عشرة سنة، إلّا أنّهما تزوجا واستمرا في الحياة الزوجية رغم الكثير من الخلافات والتناقضات والفروقات الشاسعة فيما بينهما، وأنجبا تسعة

عشر طفلاً ، لم ينجو منهم سوى عشرة أطفال، "بهاء الدين، وضياء الدين، ونور الدين، وبدر الدين، وعماد الدين، وسعيد، وصفا، وهنا، ومنى، ومروة".

أصيب لاحقاً كل من بهاء الدين وبدر الدين وعماد الدين بالسرطان، بهاء في راسه، وبدر في عظامه، وعماد في رئتيه، ليتوفيا على إثرها. بينما منى ورثت السكر هي وسعيد ومروة من والدتهم .. عمتي خديجة.. لتدخل مروة في غيبوبة إثر ارتفاع درجة سكرها، في حين أصيبت منى بألزهايمر بالإضافة إلى السكر، وعانت الكثير حتى توفت.

بينما عمّي فهد.. ولا أعرف لماذا سمّي بهذا الاسم، استمر في تعليمه الجامعي، والتحق بكلية الشريعة وتخرج منها ليعمل خطيباً في الجامع، وليتزوج لاحقاً من ابنة أحد شيوخ الجامع والتي تكبره بست سنوات، وأنجب منها سبعة أطفال " صادق، شهناز، كناز، هنادي، هُنادى، سهاد، عادل".
أصيب صادق بشلل رباعي إثر ارتفاع حاد بضغط الدم، وعانت شهناز من سرطان الكبد حتى توفت، في حين زوجة عمي أصابها سرطان الثدي وتوفت به.

هذه الهوة الكبيرة ما بين والدي وأخوته اتسعت مع التقدم في العمر، ومع زيادة الخلافات فيما بينهم، ليصبحوا أعداءً لا أخوة، وانتقلت هذه الكراهية إلى أولاد كلٍ منهم، فلا نحن نحب سماع أي شيء من أخبارهم ولا هم كذلك.

أما جدتي، الضيفة المجهولة، نزيلة الغرفة الثانية ، فكانت وحيدة، وحيدة جداً.

كانت غرفتها بكل ما تحتويه من أثاث وأدوات وملابس تؤكد مدى وحدتها، فقد عاشت هذه المرأة وماتت وهي وحيدة بيننا، تتمنى يوماً لو استطاع أحد إخراجها من قوقعتها وعزلتها قسراً، لكننّا لم نشأ أن نتدخل هكذا كنّا نفكر ، لكن الحقيقة أننّا اعتدنا وجودها في غرفتها ولم نرغب أن تشاركنا حياتنا.

وهي بدورها اعتادت الوحدة، فلم تجد من يحبها ومن يساندها، لذا سكنت غرفتها وكأنّها حبيسة هذه الغرفة وحبيسة نفسها كذلك.

كثيرون منّا يحجرون على أنفسهم وهم بين الآخرين، لا تعلمهم، تظنّ أنك تعرفهم جيداً فلا تشعر بوحدتهم، وذلك لأنّهم فرضوا على أنفسهم حجراً خفياً ليس بظاهر.

فهناك فرق كبير بين حجر صحي وحجر نفسي، ففي الحجر الصحي نأمن أنفسنا من الهلاك، من وباء أو جائحة أو مرض خطير، ونأمن بذلك أطفالنا وأحبائنا، فنزداد قرباً يوماً إثر يوم، ندعم بعضنا لنجتاز هذا الخطر، ونعبر معاً لطريق الامان، إلّا أننا في الحجر النفسي، نحيط أنفسنا بالهلاك، فلا نحب أن يشاركنا أحد لكي لا يهلك معنا أو يشعر كما نشعر.
نبتعد عمّن حولنا دون أن يشعروا حرصاً منّا على سلامتهم، نتغير دون أن يروا الفرق، فنكون بذلك كمن سقط في غرفة صغيرة بيضاء لا نافذة فيها ولا باب ولا أثاث ولا متاع، لا شيء، سوى البياض، لا جدران، ولا أرضية، ولا نعلم هل نحنا على السقف أم أننّا على الأرض، فنعيش صراعاً دون صراخ، وألماً دون بكاء، وحزناً دون أنين.

وهذا كان حال تلك الضيفة المجهولة التي فرضت على نفسها أو فُرض

عليها هذا الحجر النفسي، حجر على الذات، مع حجر صحي ليس من وباء وانّما من الاختلاط بالغير، من معاشـــرة الأقرباء أو الأبناء أو الأحفاد، وكذلك حجر عقلي فقد ماتت وعمرها العقلي لا يتجاوز العشر سنوات.

فقد كانت حبيســـة طفولتها حتى ناهزت التســـعين من العمر، لتنتهي رحلتها وتمضـــي لتســـلك درباً آخر لا نعلمه، لقد كانت هذه المرأة المجهولة " جدتي " أم أبي، ولا يمكنني حتى أن أناديها بذلك الوصـف أو بتلك الكلمة " جدتي " فلم أعرف معها معنى هذه الكلمة أبداً، فلا حنان ولا عطف، ولا مشاعر، حتى أنني لا أذكر نبرة صوتها، ومهما حاولت استرجاع صوتها لأتأكد من أنّها كانت تستطيع النطق أفشل.

هذه عائلتي ... إنها عائلة مشوهة.... ومن أنا لأقول عنهم هذا، ربما لو قرروا ما كتبت عنهم ليظنوا أنني أبالغ نوعاً ما، لكن لأصدقكم القول لم أتكلم سوى بالقليل القليل.....
لأعود الآن وأقص عليكم طفولتي أنا وأخوتي.....

الغيرة" طفل واحد غير كل شيء

"الغيرة... ذلك الوحش الصغير الذي ينمو في قلوبنا حين نرى الحب يُمنح لغيرنا." "أمي تحبك أكثر" لأثير عبد الله النشمي:

"في قلوب الأطفال غيرة صامتة كالضباب، تختنق فيها المشاعر قبل أن تبلغ الشفاه."من "الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران

مع تتالي الأيام بت أقرب لوالدتي، وخاصـــة بعد ولادة أخي الصـــغير سامي، حيث شعرت حينها بالهجر.

ولكي أمحو عنّي صـــفة النفي، أصـــبحتُ أكثر قرباً لأمي وأكثر تعلقاً، التصـقتُ بها التصـاقاً ربما لتغفر لي خطيئة لم أرتكبها ولم أعلم بها ولا أذكرها، أو لأبعد عني شـعور غير واعي يسـيطر عليه الخوف والقلق من مصـير مجهول ينتظرني، أو ربما هو شـعور حقيقي بأنني لم ولن أكون نزيلة هذا الرحم يوماً.
وهذا ما اكتشـفته لاحقاً... ألا ليتك يا أمي لم تخبريني به... وربما حتى لو لم أُخبر به... لكنني شعرت به منذ ولادتي.

أصـــبحت كثيرة البكاء، وكثيرة الخوف، ألاحق والدتي أينما تذهب كظلها، أســـير وراءها كأثر تخلفه على رمل حارق، أتبعها حين تطبخ وحين تنظف، وفي الحمّام وعلى الســطح، أتعلق برقبتها، وأجلس على حضنها وأدفن وجهي بجسدها وأنفي بصدرها لأشتم رائحتها، فيستكان خوفي، وتهدأ مشـــاعري المتوهجة، وحين تدفعني عنها بعيداً أصـــرخ مســـتنجدة، لتعود وتحملني وتعانقني من جديد، ويزداد تعلقي بها في حال وجود الغربـاء الذين هم أقربـاء لنـا، لكنّهم في نظري غربـاء قد يأخذوني بعيداً عن أمي.

أما أخوتي الأعزاء الأعداء، أو الغرباء الأقرباء، فلأسرد عليكم بعضاً من خصالهم الحميدة التي تعززت حينما كبروا.

ولأبدأ بســـامي، الذكر الوحيد على البنات، آخر العنقود، ولد في يوم شتائي قارس البرودة، في الساعة الواحدة ليلًا، أطلقت أمي صرخاتها فأخذها أبي مســـرعاً لمنزل جدتي، وهناك أحضـــروا لها الطبيبة " سوزان "، لكن لم تكن تصل الطبيبة حتى سمعت صراخ أخي الذي أعلن حضوره وعدم حاجته لمساعدتها، فقد كانت أمي سريعة الولادة دائماً في جميع أخوتي، لم تحتج لوقت طويل، ربع ساعة أو أقل ويكون الطفل قد ولد، ســـاعدها في ذلك حركتها الدائمة في المنزل من تنظيف وطبخ وغسيل واهتمام بواجبات والدي وواجبات الضيفة النكرة.

بالرغم من أنّ أخي الصـغير كان مسـلياً ومرحاً ومرتبطاً بي، إلا أنني بوجوده شعرت بتعقد مشكلتي، ففي مجتمعنا يُعدُّ الطفل الدليل الواضح على رجولة الأب، وعلى أنوثة الأم، فمهما أنجبت الأم من فتيات، لا تُعدُّ أمّاً حتى تنجب الذكر، فالصبي هو من يحمل اسم العائلة ويرفعها، ويرثها ليخلد ذكراها، ويورث اسمها للأجيال اللاحقة، بينما الفتاة تحمل اسم أبيها فقط لفترة مؤقتة، لأنّها ما إن تتزوج حتى تنتقل لعائلة أخرى، ويرتبط اسمها باسم زوجها، ومهما أنجبت من أطفال لا تعدّهم العائلة " التقوى " جزءاً منهم، لأنّ أســـماءهم لا تحمل هذا اللقب بل لقب أبيهم الغريب عن العائلة.

وفي شـريعتنا لا تتغير كنية الأم الزوجة كما في بلدان أخرى كلبنان ما إن تتزوج، ما يتغير فقط هو خانتها ونفوســـها ومكان إقامتها، ومع هذا بمجرد أنّها لا تستطيع نقل هذا الاسم الجليل " التقوى " لأطفالها الذين تتدلى من أعناقهم قلائد عائلة أبيهم فقط، فإنها بذلك تكون قد خانت

العائلة التي ترعرعت في كنفها، وهذا كفيل بعدم الاهتمام بها منذ أن تطأ بقدميها هذه الأرض إلى أن ترحل عنها.

والى يومنا هذا، بالرغم من أننا في عصـــر التطور والتقدم، إلا أن النظرة بقيت نفسها لم تتغير، فقد تطورت وصقلت النظرة من الخارج لتلائم عصراً حديثاً، في حين أنّها حافظت على المضمون نفسه، الذكر هو الأهم، ودماؤه ودماء أبناؤه من دماء العائلة، ومحبتهم أعلى شـــأناً من محبة الأحفاد من أصول أجنبية)بمعنى من رحم الفتاة لا الفتى(.

وهذا ما يحيرني؟ ....، أليس من الأجدى أن تحب الجدة أحفادها من بناتها مقارنة بأحفادها من أبنائها الذكور، فأطفال أبنائها الذكور ولدوا من رحم غريب، رحم لم تشـهد على طفولته ولا على نشـأته ولا على تربيته، وربما حتى لم تشـــهد على هذا الارتباط منذ البداية، وأجبرت على قبوله جبراً، في حين أنّ الأطفال الذين سكنوا رحم ابنتها، سكنوا رحماً تعبت عليه وســـهرت الليالي لينمو ويكبر أمام ناظريها، رحماً تعلمه جيداً.

لذا فوجود سامي كان عبئاً إضافياً عليّ ، وكان سبباً في نكوصي، فقد بتُّ أشبه ما أكون بالرضع في تصرفاتهم، أرغب في وضع إبهامي في فمي، وأرغب في المصاصة " اللهاية " وهي شبيهة كثيراً بصدر الأم وإن كانت صورة مصغرة عنه، فهي دائرية الشكل ولها قطعة دائرية أيضاً في وسطها .

والأنكى من هذا وذاك، أنني بدأت أبلل فراشـــي كل يوم وكل ليل صباحاً ومساءً، فاستاءت مني والدتي كثيراً، وأصبحت حسرتها، تتحســـر عليَّ كلما أرتني، وكأنني أؤكد لها عدم صـــلاحيتها لدور الأمومة، رغم أنّها أنجبت قبلي اثنتين، رعتهما جيداً، وكانتا بصـــحة

جيدة وفتاتين رائعتين بنظرها، فالكبرى تدعى " ســـارة " جميلة وحســـناء الطلعة، تبهر الأنظار أينما ذهبت، وكأنّ الله ســـبحانه وهبها الجمال ليكون ميزتها وهوايتها، لتجعل كل من يراها يحبها، بحركاتها ورقصاتها وغنجها، فلا ترى شخصاً إلا وتحاول ملاطفته والتحبب إليه حتى يحبها أكثر من أطفاله، ربما رغبة دفينة في جعلهم يتحســـرون على أنهم لم ينجبوا مثلها ولن ينجبوا شبيهاً لها، كانت ذو بشرة بيضاء، بوجه مدور، وخدود ممتلئة، وحواجب رفيعة، وشـــعر أســـود فاحم طويل، وعينين زيتونتين واسعتين، وفم مكتنز وابتسامة جميلة، وجسد ممتلئ، ويضاف على ذلك ما ملئ به رأسها بأنّها أجمل الجميلات وأنّها ستغدو أجمل فتاة حين تكبر، وهذا ما جعلها مغرورة أكثر بجمالها.

في حين كانت تصـــغرها بســـنة " فرح " مختلفة عنها في كثير من الصـفات والسـمات، هادئة فرحة كما اسـمها، تغني أجمل الألحان، منذ صـــغرها حت قبل أن تحســـن النطق، تحب اللعب لوحدها، ولا تزعج أحداً، تعلمت منذ ولادتها أنّ الجميع يفضـلون أختها الأكبر عليها كونها الأكثر حسناً، قبلت بهذا واقتنعت به لدرجة أنّها اقتنعت بأنّها أبشع فتاة، وأنّه يحق للآخرين ألا يودونها أو يحبونها، فهي كانت ذو بشرة سمراء قاتمة وعينين بنيتين شـديدتي القتامة، وفم كبير واسـع وأنف كبير بارز وشـعر قليل بني قصـير، وجسـد نحيل وهزيل، فكانت أشـبه بالصـبي، ورضـــاها بأنّها مختلفة عن أختها لم يجعلها حاقدة أو ناقمة، وانّما اتخذت لحياتها مساراً آخر بسكينتها وهدوئها وانعزالها، لتصـبّر نفسـها على من حولها، وربما بهدوئها واتزانها تلقى بعض الود من الآخرين، فتستكين لهذه اللفتة اللطيفة وتستأنس بها، وان كانت مزيفة.

وكونهما تكبراني عمراً، فسـارة تكبرني بخمس سـنوات، وفرح تكبرني بأربع سـنوات، لم تشـعرا بالغيرة من سـامي مثلي أنا، بل كانتا تعدّانه لعبتهما المفضـلة، أهداها لهما والدينا، فتسـرعان للاهتمام به ومعانقته

ومداعبته، كلٌ منهما على طريقتها الخاصة، فسارة تعامله كأنّه ملكيتها، يحق لها أن تتصـــرف معه كيفما تشـــاء، فقد اعتادت تلبية أوامرها، لدرجة أنّها ترى أنّ كل ما يخص من حولها يخصـــها، ويحق لها أن تأخذه في أو وقت، دون اســتئذان، أمّا فرح فعلى خلافها تهتم بســامي وتغمره بالحنان والحب وبكل ما حرمت منه وما كان ينقصـــها، فتغدق عليه من أمومتها المبكرة الطاهرة، لتعوّض نفسها من خلاله ما حرمت منه من حب ودفء واهتمام.

أمّا أنا فلم أكن مثلهما يوماً، كنت أحسـب أخي عدوي اللدود الذي احتل حضـناً يحميني، اغتصـب قلعتي الحصـينة، من عرّاني وطردني من منزلي، لأكون لقمة ســائغة لمن حولي، كنت أراه الســارق، الظالم، مبعوث خفي يرغب أن يـأخذني من والـدتي، لأضـــيع وأتوه، فكـان لزاماًعليّ الدفاع، لم أستسلم يوماً،عاهدت نفسي أن أبقى، فاتخذت معه كافة الوسائل والطرق، والغاية تبرر الوسيلة، غايتي كانت حماية نفسي فقط، لذلك بتُّ أتحيل الفرص لإيذائه، أجرّه على الأرض الاســمنتية المليئـة بـالحجـارة والتراب، بحجـة أنّـه يبكي ويريـد أن يرضـــع، أو أضـربه، أو أقرصـه، أو أشـغل أمي عنه، إمّا بتنظيفي، أو بإطعامي ... إلخ.

وحينما أراه يرضـــع من ثدي والدتي، أكاد أجن، فأنا التي لم ترضـــع يوماً من ثدييها، أحنُّ إليه، وكثيراً ما أتســاءل ما طعم هذا الســائل الشـفاف الأبيض الذي ينهمر كنهر جارف ليسـقط في فم أخي؟، كنتُ أحســده وأتمنى أن أكون مكانه، وهذا ما دفع بوالدتي لتعوضــني عنه بمصـاصـة، مصـاصـة صـفراء جميلة ومنتفخة شـبيه بصـدرها كما أخبرتكم ســابقاً، اتحدّت معها وباتت كظلي وصـــديقتي ترافقني أينما ذهبت، حتى وأنا نائمة لا تفارقني، أتلذذ بها وأتخيلها وهي تغدق عليّ من سائلها اللزج الشهي، فأخرجها من فمي ومن ثم أعيدها، لأتأكدّ أنّها

مازالت في فمي، وأكرر ذلك مرات عديدة، وفي كل مرة أشـــعر بلذة مختلفة وبقوة كبيرة، وأشعر بشبع بعد جوع طويل.

وفي يومٍ من الأيام اســـتيقظت ليلًا من فراشـــي، فلم أجدها في فمي، فصـــرخت وبكيت، فكيف هجرتني وتركتني وحيدة وأنا بحاجة ماســـة لها، وملأ صـــراخي الغرفة، فاســـتيقظ الجميع، وبدأت عملية البحث الدؤوب عن مصـاصـتي في جميع أنحاء الغرفة، فوق السـرير وأسـفله وفي ثيابي وثياب أخوتي وعلى الأرضـــية وتحت الفراش، لكن دون جدوى، فقد باءت جميع محاولاتنا بالفشل.

شـعرتُ بالمرارة، وعادت إليّ مشـاعر القلق والخوف من الضـياع مرة أخرى، انهرت، وبتُّ لا أنـام، بكـاء وعويل وصـــراخ رافق دقـات عقارب السـاعة، مع كل دقةٍ منها صـرخة وتأوه، وضـرب بالأقدام على الأرضـية، ورمي لكل ما تلامسـه يدي من أثاث وأشـياء أخرى، وازداد عنفي تجاه أخي، وكأنّه هو من أخذها، ليجعلني تعيســـة، وليزيد من حنقي وغضـــبي وكرهي له، أتخيله يســـتيقظ من نومه ويزحف رويداً ليأتي إليَّ، ويسـحب صـديقتي مني بكل هدوء وبكل صـبر، حتى تنجح مهمته ثم يعود ويسـتأنف نومه، وكأنّ شـيئاً لم يكون، وهكذا مرّ الوقت ثقيلًا، يوماً اثر يوم، حتى انهارت قوى والدتي، وأذعنت إليّ واستسلمت وأعادتها إلي، فقد قامت بتخبئتها ظناً منها أنّها تسـاعدني وتحميني من حدوث تشوه في أسناني أو فمي، لكنّ اصراري عليها وبكاءي المستمر جعلها تقلق علي، أخبرتني أنها وجدتها في فســـحة منزلنا ولم أقتنع بكلامها حينها، لكن رؤية مصاصتي جعلني لا أهتم بشيء.

ازداد تعلقي بمصـــاصـــتي حتى كنت أســـتيقظ من نومي لأتأكد أنها في فمي ثم أتابع نومي وأنا سعيدة ومرتاحة.

أتأسف اليوم على الأمهات اللواتي يجبرن صغارهن الرضع على وضع المصاصة، رغم رفض الرضيع لها في البداية ومقاومته لها، وخوفه منها كدخيل غريب، إلّا أنّها تصر على وضعها في فمه، وتكرر محاولاتها في إدخال المصاصة في فمه وهو يتلوى من الألم والخوف حتى تنجح أخيراً في محاولاتها، فإن حاول الصغير بصقها من فمه، تراها تعيدها إليه عنوة بل وربما تصفعه على يده أو قدمه، وهذا يزيدها شعوراً بالنصر والجبروت أمام ضعف الصغير، ولكنّها بعد فترة من الزمن تراها تندم لسوء ما فعلت وتقرر بنفسها أنّه من الأنسب لرضيعها تركها، ولا تتخذ هذا القرار إلا بعد أن يكون الرضيع قد توحد مع مصاصته ليصيرا كينونة واحدة، فكما قررت اعتياده على المصاصة، قررت أهمية وضرورة هجرانه لها، لا بل حكمت عليه حكماً غوغائياً قاسياً، حكماً استنبطته من نشأتها، من معاناتها وهي طفلة صغيرة، ومن رغبتها إمّا في الانتقام لطفولتها أو في تعويض حرمانها.

ومنذ ذلك اليوم أبرمت عقداً مع مصاصتي على البقاء معاً مهما كانت الظروف.

ولم تكن حالي أفضل مع أختي اللتان تكبراني بأعوام قليلة، فكنت أبتعد عنهما ، أو هما من تبعداني وتقصياني، لم أهتم، ولم أشأ بتكوين رابطة معهما، وكنت أحدث نفسي أنّهما لا تشبهانني في شيء، ومع هذا أراقبهما من بعيد، كيف تسلكان، ماذا تفعلان، وكيف تلعبان؟، وأحياناً كثيرة كنت أقلدّ حركاتهما سراً دون أن تعلمان، وأدّعي تجاهلهما حينما تریاني وتنظرا باتجاهي.

ولم أدخل معهما في معركة، فلم تشكلا تهديداً لي، فلأدعهما وشأنهما طالما أنهما لا تتخطان الحدود الحمراء معي، ولا تفكرا حتى في أن

تحتلا قلعتي وحصني.

منذ صغري أشعر بتميزي وباختلافي، وهذا ما تؤكده لي والدتي اليوم، كانت تقول لي:

" لا تشـــبهين أخوتك أبدا، لقد عذبتني كثيراً، وفي كثير من الأحيان، عجزت عن تهدئتك، لقد أشعرتني بضعف أمومتي."

فهل حقاً أضعفت أمومتك... أم أنها أمومة مزيفة بالنسبة لك تجاهي...

كنت أستشعر من حولي، وأفهم مشاعرهم، وأستنبط أفكارهم، وأستنبط نواياهم، فلديّ حدس قوي لا يخطئ، وهذا ما كان يدفعني دائماً للابتعاد عمن حولي والصراخ في وجوههم والرغبة في الاقصاء عنهم.

الانفصال الأول...

- **"كانت المدرسة أول حادث اختطاف قانوني في حياتي... أول مرة تتنازل فيها أمي عني لقوانين المجتمع." ذاكرة الجسد" لـ أحلام مستغانمي**

- **"في ذلك اليوم فهمت أنني يمكن أن أُفصل عن أمي إلى الأبد. وكان هذا الفصل كموتٍ آخر." "الغريب" لألبير كامو**

- **"في ذلك الصباح، أمسكتْ أمي بيدي وذهبت بي إلى مكان كبير فيه كثير من الصبية... تركتني هناك وغادرت، وظننت أن الدنيا قد انتهت." "عزازيل" لـ يوسف زيدان**

كبرتُ وبتُّ في سن الذهاب للمدرسة، وهذا كان أكثر حدث مؤلم يومها، كان صدمة لي، عقاباً على سوء لم أقترفه، أو اقصاءً عن والدتي، مع رضاها بذلك.

كانت هي من ذهبت معي في يومي الأول للمدرسة، لتؤكد لي أنّها لم تعد ترغب في بقائي بجانبها، لتشعرني بقدرتها على هجري، لتظهر ضعفي أمام جبروتها، فمن أنا لأرفض، حاولت البكاء والصراخ، لكن لم تنفع هذه الأساليب هذه المرة، حاولت الافلات من يدها الضاغطة على يدي، دون جدوى، قلت لها:
"لا أريد الذهاب، أكره المدرسة."

لكنّها لم تذعن لي، أدخلتني من باب ضخم مخيف، لأرى فسحة كبيرة أكبر بكثير من فسحة منزلنا، لا تقارن، لنصعد بضع درجات، ثمّ تتوقف أمي لتسأل عن شيء ما لم أفهم فحواه، ثمّ تجرني وتدفعني وراءها لتسأل عن شيء ما لم أفهم فحواه، ثمّ تجرني وتدفعني وراءها وكأنني
أساق للذبح، كدجاجة لا حيلة لها، وصلنا لمدخل ضيق فيه غرف كثيرة تراصت بجوار بعضها البعض، كتب على كل منها، كتابة أجهلها، كانت أمي تقرأ اللافتة المكتوبة، لتترك الغرفة وتتجه لأخرى، إلى أن وصلنا لغرفة تُعدّ الأكبر مساحة، تحتلها امرأة تجلس على كرسي خلف منضدة كبيرة مربعة، لا تقف لوالدتي حين تراها، بغيضة نوعاً ما، ملامحها قاسية، نبرتها حادة، شعرها قصير أسود، دهشت حين رأيتها لا تضع حجاباً على رأسها كوالدتي، وحدثت نفسي أنها ربما تكون قد نسيت، أو أنّها خرجت مسرعةً من منزلها فلم تنتبه لرأسها، نظرت لجسدها فلم أرى غطاءً أسود طويل يغطي جسدها كوالدتي، وانّما كانت تكتفي بارتداء تنورة قصيرة بنية اللون، وكنزة صفراء ذات أكمام قصيرة.

لم أنتبه لكلامها، أو ربما لم أفهم منه شيئاً، لكننا ما إن خرجنا حتى توجهنا لدرجات أخرى، تسلقنا الدرجات صعوداً لنجد مزيداً ومزيداً من الدرجات، إلى أن رأينا مكراً كبيراً متفرعاً يميناً ويسارا.

فتوجهنا يميناً، نظرت لإصرار أمي المنبعث من نظرات عينيها، لم تكن لتدعني، كانت تضمر شيئاً داخلها لا أعلم عنه، بتُّ أستنجد أمي أن نعود لمنزلنا، لكنها لم تصغ لي، إلى أن وصلنا لغرفة كتب عليها أرقام، فتساءلت بيني وبين نفسي، يا ترى ما هذه الأرقام ولما على كل غرفة يوجد رقم؟، هل يضعون الأرقام لتشكل لغزاً؟، أم لتكون دليلًا يهتدي به الآخرون كم فعلت أمي؟.

فما إن وصـــلنا إلى الغرفة التي رقمت بالرقم (1/1) حتى توقفت والدتي وطرقت الباب، طرقته كثيراً ، وكم تمنيت في داخلي ألا يفتح هذا الباب، فقد كان مرعباً بالنسبة لي، فهناك أصوات كثيرة تأتي خلفه، صـرخات، كلمات مختلفة فيما بينها، إلى أن فتح الباب لتطل منه امرأة أخرى، لكنها كانت ترتدي كأمي حجاباً يغطي رأسها، وهذا ما أشعرني بالألفة نوعاً ما، لكنها لا
ترتدي شـيئاً فضـفاضـاً وطويلًا كوالدتي، وانّما كنزة حمراء قصـيرة نوعاً ما، تغطي تنورة تحتها.

تحدثت مع والدتي ومن ثمّ أمسكت بيدي، وانسحبت أمي تريد الرحيل وأبعدت يدها عني، هذه اليد التي اسـتنجيت على طول الطريق أن تدع يدي ، الآن تسـتجيب، لكنني الآن كم أتمنى أن تبقى معي، وسـارعت للإمسـاك بيدها، لكنّها رفضـت وابتعدت عني، بكيت، أمسـكت بحواف الباب، وضـربت بقدمي الأرض وصـرخت، وأخذت أشـدّ يدي من بين يدي تلك الشـــريرة التي تريد خطفي وابعادي عن والدتي، كنت قوية البنية رغم صغر سني، فلم تنجحا كلتاهما والدتي وتلك المرأة الشريرة في ارضـــاخي للواقع المرير، ولم أترك يد والدتي مهما حاولت، ولقد نجحت فقد أفلتت اليد الغاضـبة يدي واسـتكان صـراخها الذي عكفت عليه منذ أن بدأت البكاء، وحينما هدأتُ هدأت أمي، وتوقفت عن تأنيبي، لكن مع ذلك لم تنجح جميع محاولاتي في مغادرة المكان.
فقد أدخلتنا تلك التي كنت أطلق عليها اسـم " الشـريرة " إلى الداخل وأمرتنا أن نجلس في نهاية غرفة كبيرة تضـم كثيراً من الأطفال، فتيان وفتيات، منهم من هم في مثل طولي ومنهم من هم أطول أو أقصـــر قليلًا، منهم، الأسـمر ومنهم الأشـقر، ومن الفتيات من اهتممن بتزين شـعورهن بشـرائط ملونة، ومنهن من اكتفت بوضـع رباط بسـيط لشعرها.

أخذت أجول ببصـري في أرجاء الغرفة، فقد لفت انتباهي وجود الكثير من المقاعد والطاولات الملتصـــقة ببعضـــها البعض، والمرتبة ترتيباً متناسقاً على شكل أرتال ثلاثية.
وصوراً تزين الحائط، ولافتات وضع عليها حكم وأمثال شعبية.

اتخذنا أنا وأمي موضعنا مثلما أشارت علينا تلك السيدة في آخر مقعد، جلســتُ أنا ووالدتي يداً بيد، لأرى وجوه الآخرين من حولي تنظر إليّ ولوالدتي بأعين ملؤها الدهشة، أو بتجاهل أو بخوف أو ....

لكنني لم أهتم لنظراتهم، فمعي أمي التي تزيد من قوتي، في حين أنّهم وحيدون دون أم لهم.

مرّ الوقت وهذه الســيدة لا تكف عن الحديث، وكأنّها شــاشــة تلفازٍ لا تنطفئ، أو صــوتٍ يخرج من مذياع عطّل به زر التشــغيل، وبذلك لن يتمكن المستمع من الضغط عليه لإطفائه وقت ما يشاء.

كانت هذه السـيدة ذات مظهر قوي، ويبدو على محياها الاتزان، وأثناء حديثها كانت تتخذ من السـبورة دفتراً لملاحظاتها، ثمّ رنّ صـوت قوي ملأ بدويه الأرجاء، إنّه صوت رنين أخضع السيدة له وجعلها تكف عن الحديث، وتبع هذا الصـوت فتح لباب غرفتنا وإشـارة لنا من السـيدة أنّه علينا الخروج وأنّ ما ســـمته الدرس قد انتهى، تهافت الطلاب على الخروج مسـرعين من الباب يتدافعون ويصـرخون، شـعرت أنّهم ربما هم مثلي سـعداء لأنّهم قد غادروا هذه الغرفة وهذه السـيدة الشـريرة، ثمّ أتت السيدة لنا وتحدثت مع أمي حديثاً عكّر صفوها وجعلها تضطرب، وبعد أن انتهيتا من الحديث خرجنا أنا وأمي من الغرفة وظننتُ أننا ســـنتجه لمنزلنا، فهو رغم ما به من علل ونواقص إلا أنّه أفضـــل من

البقاء هنا.
لكن خاب رجائي وأملي، لأننا لم نخرج من تلك البوابة الضـــخمة التي دخلنا منها، وانّما أخذنا نتمشـى في فسـحة كبيرة للغاية لا تشـبه فسـحة منزلنا اطلاقاً، وكان الأطفال يلعبون فيها ويصـــرخون ويصـــيحون ويركضـون مسـرعين، أعدادهم كانت كبيرة لدرجة أنني لم أسـتطع أن أحصـيها، ربما بالآلاف أو عشـرات الألوف أو أكثر بكثير، كانوا في وضعيات مختلفة، فمنهم من يأكل ومنهم من يبكي، ومنهم من يضحك.
شـــعرت بالجوع لرؤيتي لهم، ولم أعلم من أين أتوا بالطعام، فهل هذا المكان يؤمن لهم الطعام، وحدثتُ نفســي لما لم يعطونني طعاماً مثلهم، إلا أن والدتي أيقظتني من شرودي كعادتها وأخذت تدفعني وتقول لي:
" لما أنتِ لستِ مثلهم، هيا اذهبي والعبي معهم"

ولم أفهم قصـــدها، فمع من ألعب، فأنا مع أخوتي لا ألعب فكيف مع هؤلاء الغرباء المتطفلين على حياتي، رفضـــت وامتنعت وأمســـكتُ بيدها، فغضبت وهددتني وهي تصرخ:
"ستأتين وحدك غداً أفهمت دون أن آتي معك."

فقلت بيني وبين نفسي، اصرخي كما يحلو لك، فإنّي لن أذعن لك.

انتهى هـذا اليوم الثقيـل، لأنعم ببعض الراحـة والهـدوء في المنزل، وأشـــكر الله أنّي عدّتُ ســـالمة، فتناولت طعامي ثم لعبتُ قليلًا وبعدها شعرتُ بالنعاس الشديد فاستلقيتُ على فراشي ونمت، ترافقني صديقتي العزيزة، والتي رفضـت والدتي اصـطحابي لها صـباحاً إلى ما أسـموه المدرســـة، وهذا ما زاد من كرهي للمدرســـة وخوفي منها، فلم أكن أستطيع أن أضع مصاصتي حينما أذهب إليها.

لكنّني مع الأيام ومع رؤية الصغار دون مصاصة، وعلى اعتبار أنني ظن أنّ الجميع يجب أن يضعوا مصاصة مثلي، وأنّ أخوتي هم حالة شاذة، اقتنعت أنّ المدرسة هي مكان شرير يحرم الأطفال من التلذذ بما هو ممتع ومن التصرف كما يحلو لهم.

في الأيام التالية ليومي الأول في مدرستي، ألبستني أمي ثوباً فضفاضاً بني اللون، يصل طوله لركبتي، وفيه جيبان كبيران على الطرفين السفليين للثوب، وأزرار عديدة، وكانت تجدل لي شعري وتضع له ربطة شعر بسيطة برتقالية اللون، كما وضعت لي أمي فلور)لفحة صغيرة(على رقبتي فيها اللونين الأزرق والبرتقالي وكانت تضم طرفي الفلور بعقدة بنية كبيرة الحجم
أو ما كنّا نسميها " الجوزة " ، وبدأت رحلتي كل يوم إلى المدرسة بهذا الثوب مع حقيبة كبيرة أضعها على ظهري وأسير بها مع أختيّ .

واعتدتُ روتيني اليومي، الاستيقاظ في وقت محدد للذهاب للمدرسة، والعودة كذلك في وقت محدد، حيث أجدّ طعام الغداء وقد أعدته أمي لنا، رائحة زكية تنساب من المطبخ، فقد كانت أمي تجيد عمل كل شيء، التنظيف والطبخ وكوي الملابس والاهتمام بي وبأخوتي، وكانت تفصّل لنا الملابس الجميلة من قماش قديم مهترئ، بما يشبه عملية إعادة التدوير، فأي قريبٍ لنا يغدق علينا من ملابسه المستعملة القديمة التي لا تناسبنا في قياسها بأي حالٍ من الأحوال، كانت أمي تعمل على إعادة صنعها وتغيير مظهرها، وكأنّها جديدة ومناسبة لنا، والملابس التي تحصل عليها الطفلة الكبرى ولم تعد تنفعها لأنها باتت أصغر عليها تعطى للأصغر منها وهكذا...

لذا كنتُ في كثير من الأحيان أســتخدم ملابس أختيّ الكبيرتين وهذا ما كان يزعجني كثيراً، فنادراً ما حصــلت على قطعة جديدة، أو قطعة تمّ إعادة تدويرها حديثاً، فنحن كعائلة لا نستطيع شـراء أي ملابس جديدة من السوق نظراً لفقرنا المتقع.

ولكن مع هذا تبدو الملابس التي تصــنعها أمي جديدة وفاتنة، وتظهرنا بمظهرٍ لائقٍ أمام الآخرين، ولولا ذلك لكنّا بدونا كمتسولين أو شحاذين وجب عليهم الصدقة أو الزكاة.

فراتب والدي لا يكفينا ليومين أو ثلاث، جزء منه للإيجار، وجزء آخر لفاتورة الكهرباء والماء، وجزء آخر للطعام، فعمله لم يمكنه من كسـبٍ جيد، فقد كان موظفاً في مؤسـسـة صـغيرة للاسـتهلاك في مكان ناء بدمشق في الأرياف، وهذا كان يتطلب منه تخصيص جزء من راتبه للمواصلات " ذهاباً وايابا ."

وما تبقى من أيام الشهر كنّا نعيش على الدين، حيث يقترض والدي من أصدقائه أو أقربائه أو أقرباء والدتي، وكأننا عالة على الآخرين.

وبذلك كانت حياتنا تقوم على تأمين أهم المتطلبات الأســاســية، فلم يستطع والداي شراء ألعاب لنا أو كتب أو قصص أو تسجيلنا في نادي رياضي أو أخذنا في نزهة، وجل ما كان يزعجني هو رؤية كل ما كان ينقصنا وما نحلم به لدى بيوت أقربائنا من ألعاب وملابس وكتب ومال، بعضه مرتب وبعضه مرمي على الأرض.

وأكثر الأشياء التي كانت سبباً في تعاستي هي مكتبتهم الكبيرة المليئة بالكتب والقصص المصورة وغير المصورة المصفوفة والمتراصة بجانب بعضها البعض مؤلفة لوحة فسيفسائية بهية الألوان متربعة في

منتصف الحائط، إلا أنني كلما حاولت الإمساك بأحد الكتب، كانت تأتي خالتي وهي الأخت الكبرى لوالدتي، وتأخذ الكتاب مني وتدفعني للخارج، والغريب أنّه لا أحد في منزلهم يحب القراءة، وكثيراً ما تمنيت لو تعطيني جميع هذه الكتب المصورة لأقرأها وأستمتع بها، لكن لا سبيل لتحقيق الأمنيات، ربما اعتبرت خالتي هذه الكتب صمديات وتحف للزينة أقرب منها لكتب تقرأ، لذا وجب منع لمسها أو الاقتراب منها.

ومع هذا لم أستسلم أبداً، وكنت أتخير اللحظة المناسبة لأدخل غرفة المكتبة دون أن تراني خالتي أو أي أحد في المنزل، وأغلق الباب على نفسي، وكأنّ عالماً آخر يتراءى لي بين صفحات الكتب، أقلّب كل صفحة بعناية وتمعن دون أن أنتبه لما حولي من ضوضاء وضجيج خارج جدران هذه الغرفة، ودون الاهتمام بوجود إنارة في الغرفة، فقط الكلمات التي بين يديَّ هي من تستأثر بانتباهي، قرأت جميع قصص ريدي بيرد وجميع قصص سلسلة المكتبة الخضراء، والقصص المصورة الصغيرة، ولكنّ أكثر القصص التي تركت أثراً في ذاكرتي لا يُمحى هو قصة: الليمون العجيب وكانت هذه القصص هي سلواي في وحدتي، وهي أعز صديقاتي، وكم كان يؤلمني لحظة الفراق حين تطلب أمي مني الحضور لتوديع الأقرباء ومغادرة المنزل، تمنيت لو أنّ لي مكتبة تشابهها وأصدقاء يشبهونهم، بل تمنيت لو أنّ هذه المكتبة نفسها تكون لي وحدي، وهذا ما زاد من حنقي وكرهي لصاحبة الدار " خالتي " فماذا تعلم هي عن هذه القصص وعن روعتها وسحرها و رائحتها الجميلة، فلو أنّهم يصنعون عطراً من الورق لكان من أفضل العطور وأكثرها تميزاً ورونقة، وبعد عشرين عاماً وربما ثلاثين تأكدّت أنّ هناك من يرى أن رائحة الكتب شيئاً مقدساً مثلي، وهو كاتب مشهور رواياته كلها كانت تتعلق بالكتب وبالمكتبة العظيمة الخالدة التي لا يمكن لأحد أن يفهمها وأن يطلع بكل أسرارها وهو كارلوس زافون

وسلسلة رواياته الشهيرة ظل الريح ولعبة الملاك وغيرها.

وهذا ما دفعني بشدة لكره فقري ووضعنا الحالي، وعاهدت نفسي أنّني حينما أكبر ستكون لي أفضل مكتبة على الاطلاق، وبالرغم من أنّ حلمي هذا لم يتحقق إلى الآن لوجود عائق يقف في وجه تحقيقه دائماً كلما اقتربت خطوة منه، لكنّني ما فتئت أسعى لتحقيقه ولو بقي من عمري يوماً واحداً فقط.

ومنذ ذلك الحين شرعت في قراءة أي شيء يقع بين يدي، مجلة كانت أم كتاب قديم أم قصة مهترئة، لا يهم، المهم أن أعزز خيالاتي وأنميها وأشبع شبقي اللامتناهي، وبدأت بكتابة ما يشبه القصص القصيرة، وقد كانت محاولات بسيطة، لكنّني أعتز بها، ومن هذه القصص قصة قصيرة تدعى " مطرودة " و" غراندا مينوس" نسبة إلى بطلة القصة، وغيرها من القصص.

أكثر قصصي في تلك الفترة كان محورها الفقر والجوع والألم لأفرغ ما بداخلي من شعور مرير بالتباين في المعيشة بيننا وبين من حولنا من جيران وأصدقاء وأقرباء، فكم عانينا أنا وأسرتي من البرد والمطر والثلج، ونحن نذهب للمدرسة سيراً على الأقدام رغم أنها تبعد مسافة عشر كيلو متر عن منزلنا، أي ما يعادل ثلاثة أرباع الساعة، فلم نكن نملك مالًا لنسجل في حافلة المدرسة ولا أن نركب بالحافلات العامة، فكانت وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى المدرسة هي الأقدام، نتكئ عليها ذهاباً وإياباً، مهما كان الفصل صيفاً أم شتاءً أم ربيعاً أم خريفاً، ومهما كان الجو ماطراً أم مثلجاً حاراً أم دافئاً، شهوراً، ثم سنيناً.

وكان الطريق للمدرسة مهجوراً تغمر شوارعه الرمال والحجارة، مع وجود بعض المعامل الكبيرة المخيفة كمعمل أجهزة الأكسجين التي

توضـــع للحالات الإســـعافية لمن لا يســـتطيع التنفس، ومعملٌ آخر للسيارات.

ولذا فإنّ صوت صفير الرياح يملأ الأرجاء، وكثير من الأحيان ينتابني الخوف والفزع من أن يتعرض لي أحد ما أو حيوان ما، وخوفي فاق قوتي المتواضعة، لكنني كنتُ أدفع عني هذه المشاعر بإضفاء عنصر الخيال، فأتخيل وكأنّ الأشـــجار المترامية على طرفي الطريق تمدُّ لي أغصـانها كأذرع لحمايتي أو تتمايل فرحة بلقائي فتلقي عليّ الصـباح، فتغمرني السعادة بحنانها وعطفها علي، وتذكرني أنّها معي وستحميني من أي مكروه، وهكذا كل يوم.

بالرغم من أنني لم أكن فتاة متفوقة، لكنني كنت مجتهدة، أقضـي الكثير من الوقت في الدراســة والمذاكرة ومراجعة دروســي وكتابة وظائفي وحفظ كل كلمة قالتها المعلمة لي في الصـــف، وأكثر ما كان يميزني عن صديقاتي هي موضوعات الإنشاء فغالباً ما حصلت على الدرجة الكاملة، فالكتابة بالنسبة لي وحي والهام، ما إن يطلب مني التعبير عن فكرة ما حتى أكني وأصف وأستعير وأضيف مشاهد حقيقية وخيالية ممزوجة معاً لتشكل في النهاية نصاً ساحراً مملوءً الحياة.

وما جذبني أكثر وزاد من تعلقي بالمدرسة صديقتي التي باتت كأخت لي وتدعى" آلاء "، كانت لطيفة وهادئة وقليلة الكلام وطيبة النفس ومعدومة المال مثلي، ذات بشرة بيضاء يشوبها بعض النمش على الوجنتين وعينين سوداويتين فاحمتين، وفم صغير وأنف صغير ووجه مدور، ولكنّها كانت ضخمة مقارنةً بي، في الطول والوزن، وتسكن منزلًا متواضعاً في بستانٍ يقع خلف مدرستي، كنّا نشبه بعضنا في كثير من الأمور أو أنّها كانت تكمل ما بي من نقص، فأنا كثيرة الكلام نشيطة لا أحب الهدوء كثيرة الحركة وهي لديها ربما كل ما كنت أتمناه

من هدوء ورزانة وصبر.
وكلتانا لم تكن تستطيع شراء طعام من بوفيه المدرسة، لذا كنّا نحضر سندويشاً معنا من المنزل، ونضع بها ما كان لدينا من لبن زبادي أو أي شيءٍ آخر، وربما أكثر ما اشتركنا واتفقنا عليه هو عدم محبتنا لحصة الرياضة، حيثُ لم يكن بمقدورنا شراء بجامة أو حذاء رياضة، ولذا نضطر لممارسة الرياضة بملابسنا الخاصة بالمدرسة مع سماع تأنيب ولوم من المدرّسة وتحذير بأنّه يتوجب علينا إحضار ملابس خاصة بالرياضة، وهذا ما دفعنا في كثير من الأحيان لتجنب العقاب، واحضار بجامة قديمة وحذاء بالي من المنزل لهذه الحصة المملة، فكنت أشعر تجاهها بأنّها كمن تعرّيني وتظهرني بمظهر المتسولة أمام زميلاتي وزملائي في الصف، على اعتبار أنّ مدرستي كانت مختلطة فيها الذكور والإناث.

وقد بلغ عدد التلاميذ في صفي حوالي الأربعون تقريباً، كنّا نوزع على المقاعد إمّا فتاة تجلس بين صبيين أو صبي يجلس بين فتاتين، وفقاً لقانون المعلمة الخاص " فرق تسود."
وهكذا جلست أنا مع صديقتي آلاء وجلس بيننا طفل يدعى " عبد الله " والذي علمت فيما بعد أنّه ابن المعلمة المدلل، وذلك بعد حادثة وقعت له وكنتُ أنا سبباً رئيسياً في حدوثها، فذات يوم أوقعته بوضع قدمي بين قدميه حينما أراد الخروج إلى السبورة بعد أن طرحت علينا الآنسة سؤال، وأخرجته هو رغم أنّه لم يكن يرفع يده، إلا أنّها دائماً تخرجه هو فقط دون سواه مهما ألحينا عليها بطلب الخروج والإجابة على السؤال، لذلك عندما أراد أن يبعدني ليخرج أوقعته فسقط أرضاً وبدأ بالبكاء، مع أنّها لم تكن سقطة قوية إلّا أنّه ادّعى الألم، فجاءت المعلمة وصفعتني على وجهي ألماً جمع آلام الدنيا كلها في يدها لتسقط على وجهي ويحتضنها خدي ثم قلبي ثم كياني فشخصيتي، صفعة كانت من القوة ما جعلتني أرتدُّ إلى الخلف، صفعة كانت كافية لتجعلني مشوهة

مذلولة، مكسورة ، خجولة، قلتُ لها:
"أنّني أوقعته أرضـــاً لأنني رفعت يدي كثيراً ولم تخرجيني، في حين أنّك أخرجت عبد الله عدة مرات في الحصة الواحدة"

لكنّ حديثي لم يرق لها، وكذلك حديثها لم يرق لي، ولم أفهم ســـر تمييزها لعبد الله على غيره إلى أن نادته " ماما فيك شي"

تفاجأتُ كثيراً وكأنّ صفعة أخرى قد دوت على خديّ الآخر، كم تألمتُ ذلك اليوم، حيثُ صـــفعتُ إرضـــاءً لغيظها وخوفها على ابنها لا للفعل الذي قمتُ به، وهذا ما زاد من مشـــاعر الخوف والقلق لديّ . لم تكن هذه الصفعة الوحيدة، فخلال مسيرتي الدراسية انهالت عليّ الصفعات منها من كان ملموساً ومنها خفياً، وفي الحالتين ازدت تشوهاً.

أشـعر بالراحة اليوم لأنّ قرار " إلغاء الضـرب في المدارس نهائياً" قد بات معمولًا به بشـــكلٍ فعلي في مدارســـنا، فليس من حق أي معلم أو معلمة ضـرب طفل أو طفلة، فهم لا يعلمون ما أثر هذه الضـربة لاحقاً في شخصية الطفل ومستقبله، حيثُ تتركُ جراحاً لا تندمل.

ولو ينصفني القدر لألتقي مجدداً بمن رمى بي بصفعة، لأردها له آلاف الصـفعات، ولأنهال عليه بأقذر الشـتائم لا لشـيء سوى لتحقيق العدالة، ولن تتحقق ولو بألف صـفعة وصـفعة، فصـفعة الطفولة شـوهتني أمّا صـفعاتي لكم اليوم فلن تترك أثراًوربما حتى لن تشـعروا بها، بجسـدكم الهزيل ونفسيتكم الواهنة وأحلامكم الضعيفة.

في ذلك اليوم فكرت أنّني لن أعود مجدداً للمدرسـة، لكنني لم أسـتطيع،

فصـــديقتي هناك، وقد تآلفت قلوبنا معاً وكأننا خلقنا من رحمٍ واحد، أحببتُ الحديث معها واخبارها عن عائلتي، منزلي، أقربائي، جيراني، والحي الذي أقطنه وما يدور فيه من مشكلات وصراعات ومشاجرات قد تصل لرفع الأسلحة بوجه الآخر والتهديد بالقتل والحلفان بإنهاء حياة الخصم، ثمّ لا يحدث شيء من هذا التهديد والوعيد.

وهي بدورها كانت تخبرني عن عائلتها وأختها الصغيرة " ندى " وابن عمها " جلال "، وعن ارتباطها به منذ الولادة، حيث تعاهد والدها مع أخيه والد " جلال " على زواج الصـــغيرين " آلاء وجلال " حينما يكبران وقد قرآ الفاتحة على ذلك، وأنّه مهما حدث فلن يتزوج أحدهما إلا من الآخر ودون أن يستشيرا أحد كوالدة كلٍ منهما، ودون حتى أن ينتظرا ليسألا صاحبي العلاقة إن رغبا في هذا الزواج مستقبلًا، وكأنّ صـــديقتي من الأشـــياء التي تعود ملكيتها لأبيها كأي قطعة أثاث، يحق لوالدها ما لا يحق لها أو لغيرها فيما يتعلق بالتصـــرف بشـــؤونها متى يشاء وكيف يشاء.

لم آخذ بكلامها في ذلك الوقت، وظننتُ أنّها تبالغ في الحديث عن زواجها من ابن عمها إلى أن تركت المدرسة لاحقاً بعد ست سنوات معاً وهي في الثانية عشرة لتتزوج رغماً عنها بابن عمها ولتصبح أماً وهي في الثالثة عشرة فقط، كان ذلك اليوم صدمة قوية بالنسبة لي، فقد فارقتني من اعتبرتها أقرب إليّ من أختي، من حســـبتها الســـند واليد الحنونة حينما أقع
والموجه حينما أخطئ وشـريك الفرح والحزن، وقد شـعرتُ بضـعفها وعدم محبتها لي حينما فارقتني وتخلّت عني، ورمت بصداقتنا الطويلة نوعاً ما في بئرٍ عميق لا يُرى له قعر، ومنذ ذلك الحين فقدت الصـداقة معناها بالنسبة لي، وفقد الصديق قيمته وأهميته، بل وحتى الكلمة نفسها " الصداقة " اعتبرتها أكذوبة واستبدلتها بـــ " مصادفة " بمعنى صدفة

يلتقي فيها شخصان فيتعارفان ويتكلمان، ثمّ لا بدّ للصدفة من أن تنتهي فيفترقان.

ولذا لم أهتم بعد صـــديقتي آلاء بتكوين أصـــدقاءٍ جدد على الإطلاق، لدرجة أنّني من أتعرف عليهم في إحدى ســـنواتي الدراســـية أكره وجودهم في الســـنة التالية وأعدّه عقاباً لي حينما أراهم مجدداً معي في نفس الصف.

لم أرسـب في أي صـف دراسـي خلال مرحلة الدراسـة في المدرسـة الابتدائية، وكنتُ أنال الدرجات المتوســـطة في بعض المواد وأحياناً درجات كاملة في مواد أخرى، ولم أنفك عن مقارنة نفســـي بالأخريات في لباســـهم وتصـــرفاتهم وحقائبهم المدرســـية الكبيرة الحجم والمليئة بالألوان الزاهية والرســـومات الكرتونية الجميلة، وعلبهم الهندســـية المميزة.

إلّا أنّ والدتي كثيراً ما كررت على مســـاعي كلمة " مظاهر " كانت دائماً تقول لي: إنّها مظاهر يا أمينة .

فأستمع لها وأؤمن بكلامها، وأقتنع أنّ المظهر ليس مهماً، المهم ما نحن عليه وما سنكون عليه مستقبلًا، وألا يظهر الفرد بشيء عكس شخصيته ومبادئه، وهذا ما شـــدّ من أزري وجعلني لا أقف أمام كل هذه الأمور والنواقص في حياتي، وبذلك كنتُ أعوض حرماني بفتحي لدفتر جديد من بين بعض الدفاتر الجديدة التي يحضـــرها لنا قريب غني بعض الشـــيء يرغب في تزكية أمواله، فيرانا العائلة الأنســـب لغايته، وهذه الهدية كنّا نتلقاها كل سنة تقريباً مع كل عام دراسي جديد.

حيـثُ يـأتي إلينـا هـذا القريـب الغني محمّـل ببعض الأقلام والـدفـاتر

الجديدة، وربما لولا صـدقة هذا القريب الغني لما كنّا اسـتطعنا متابعة دراسـتنا والوصـول لما وصـلنا إليه اليوم، كانت هذه الصـدقة بمثابة يد الله الحـانيـة علينـا في الأرض والتي لم تتركنـا أبـداً في أي وقـت من الأوقات، فلله الحمد على كل شيء.

كانت فرحتي عظيمة بهذه الدفاتر، فكنتُ آخذ إحداها وأفتحها وأشـــمها من كل قلبي، أشـمُ رائحتها وأسـتنشـق عبيرها وأحضـنها وأغرسـها ما بين جوانحي لأشعر بالدفء والأمل.

وتتالت الأيام، وتتالت الشـــهور والســـنين، ومهما حاول المرء تذكر ما مرّ به بالتفصـيل وبدقة، فإنّه لن يتمكن من ذلك، فالأشـياء التي نتذكرها هي فقط التي تترك فينا أثراً لا يُمحى سواءً بالفرح أو بالحزن.

نجحتُ بالصف الأول، بعلامات جيدة دون أي تفوق أو مرتبة، وانتقلت إلى الصـف الثاني، كانت آنسـتي اسـمها " سـمر " رقيقة وطيبة وحنونة أحبتني كثيراً ، وجعلتني أحبُ المدرسة وأتعلق بها، وهذا جعلني أدرس وأجتهد لأنال مكانة مميزة لديها، فكانت مرتبتي الأولى على الصـــف وكنت مثال الطالبة المؤدبة والمجتهدة والمثابرة، وتلاه الصـــف الثالث مع تغيير جديد للآنســة، كانت آنســتي الجديدة تدعى " ســميرة " ربما يمكن أن أدعوهـا شـــخص بلا مشـــاعر، فهي لا تجيد التعبير عن مشاعرها فلا يمكننا استشفاف إن كانت راضية عن مستوانا كطلاب أو إن كانت منزعجة، ولا حتى يمكنها أن تفضـل طالباً من بيننا، فبالنسـبة لها تعتبرنا جميعاً مهنة فرضـت عليها تأديتها، وهذا كلُ شـيء، إلّا أنّ رغبتي في التميز والتفوق لم تتلاشـــى في هذه المرحلة بل اشـــتعلت حماستي لأبقى محافظة على مرتبتي وإن لم تهتم الآنسة لها، فشعوري بأنّ هذا سيسعد آنستي السابقة " سمر " كان كافياً ليبقيني على المستوى نفسه من الاجتهاد.

وانتقلتُ إلى الصف الرابع مع آنسة غريبة الطباع وغريبة الحديث، تدعى " نبيلة " كانت بدينة وشعرها أسود قصير وبشرتها حنطية نوعاً ما ووجها مستدير كقرص الخبز، وعيناها صغيرتان وسوداوان تملؤهما القسوة، وذات صدر بارز كبير، أمّا مؤخرتها فكانت كبيرة الحجم، ومع هذا كانت دائماً ترتدي تنورة سوداء قصيرة ضيقة بحيث تظهر مؤخرتها تماماً وقميصاً أبيضاً شفافاً، ولم تكن اسماً على مسمى، فلا هي نبيلة في مشاعرها ولا في تصرفاتها وخاصةً معنا نحن الطلاب، أمّا كلماتها فكانت سوقية وإن غضبت من طالب أو طالبة قذفته بشتى الكلمات النابية ولعنته وشتمت والدته ووالده بأقذر ما يمكن أن يخطر على بالها من مصطلحات يمكن وصفها بأنّها استوحتها من الشارع، فمرة كانت تشرح لنا درساً في العلوم وخلال الحصة ألقى طالب بمزحة أضحكتنا جميعاً، هنا اشتعلت الآنسة غضباً ورمته بأقسى وأقذر ما لديها من كلمات ووصفته بشتى أنواع الحيوانات من حمار لكلب ... إلخ.

كانت فترة دراستي في الصف الرابع مميزة، فقد برزت في الأدب وفي حصص القصة والإنشاء واللغة العربية، وأثناء تصحيح الآنسة نبيلة لورقتي الامتحانية في اللغة العربية، فمن عادتها دائماً أن تصحح الأوراق أمامنا لترينا أخطاءنا ولتشتمنا في نفس الوقت، نادتني الآنسة نبيلة
لأخرج إليها وهي ماتزال ممسكة بورقتي، كنتُ خائفة قليلًا منها، ولكنّ رأيتُ ابتسامتها وهي تريني ورقتي وتقول لي:
" لقد قرأت موضوع الإنشاء الذي كتبته، كان رائعاً ومميزاً، أعرف أنّك تكتبين بشكل جميل، لكنك هذه المرة أجدت الوصف والتعبير، أحسنت يا صغيرتي. "

شـــعرت بالســـعادة حينها، فهذه أول مرة أراها تمدحُ أحداً وتتفوه بمثل هذه الكلمات الرقيقة، وهذا شجعني على الاستمرار في الكتابة.

كما تخللت سنتي الدراسية هذه بعض المغامرات، حيثُ احترق صفي، وذلك في يومٍ قارس، كانت الأمطار تنهمر بغزارة خارج نوافذ صـــفنا والرياح تصـفر بأرجاء المدرسـة وتلطم جدرانها وأركانها، لذا تجمعنا حول مدفأة صـفنا، كانت مدفأة صـغيرة الحجم سـوداء متسـخة وشـديدة القدم، تقبع أمام باب غرفة الصـف، مسـتندة إلى جدار الصـف، لم تكن ذات نفع كبير، ولذا لكي ندفئ أنفسـنا كنّا نضـطر لمعانقتها حتى ننسـى البرد، فتدافعنا أنا وأصدقائي أمامها مستغلين غياب الآنسة عنّا فترة من الوقت وذهابها لغرفة المديرة، إلى أن رمينا المدفأة أرضـــاً، فاشـــتعلت النيران في كل مكان، وأخذ الرعب منّا كل مأخذ، وتعالت صـــرخاتنا مستغيثة مع ثوران النيران من حولنا، وأسرعت المعلمات والموجهات والمديرة ليروا سر هذا الصراخ، كما تدافع باقي الطلاب من الصفوف الأخرى، واستطاعوا بفضل الله اخراجنا من بين النيران التي أحاطت بنا وبباب غرفتنا، ونجونا بأعجوبة كبيرة، والحمد لله أنّه لم يصـــب أيٌ منّا بتشـــوه أو حروق، إلّا أنّ هذا الحريق أعاد لي ذكرى حريقٍ آخر حدث لي في صـــغري حينما كنتُ في الرابعة من عمري، كنتُ في المنزل بجوار المطبخ وكـانت أمي تضـــع قدراً مليئاً بـالمـاء على " البابور" وهو موقد صغير يعمل على الكاز، فجلستُ بجوار القدر، أنعم بـالدفـء، وأراقب تموجـات المـاء وتبـدل حـالهـا بفعل النّـار والفقـاقيع المتطايرة والبخار المتصـاعد، فشردتُ واصطدمت يدي بالقدر، فسكب ما به من ماء شـديدة السـخونة على جسـدي، لأحترق في بطني وفخذي وقدمي، أسـرعت والدتي بإسـعافي إلى جمعية خيرية قريبة من منزلنا، فدهنوا جســـدي بمراهم ولفوه بالشـــاش الطبي وأعطوا والدتي بعض الأدوية لأتناولها، إلّا أنّ هذا الحريق أراد ترك وديعة لي لأذكره دائماً مشـــكلًا ما يشـــبه الخريطة في أعلى فخذي، بســـبب النتوءات اللحمية

والتكتلات الجلدية والانتفاخ الذي سببه في جلدي، وكذلك خطاً أسود متقطع مع بعض النقاط السوداء المنتشرة من حوله، كسوار حول بطني منطقة فوق الصرة وكذلك خلخال حول قدمي اليسرى، لذا لم أتمنى أن تعاد التجربة ثانية.

وأذكر كذلك حادثة أخرى برزت في السنة نفسها، كان يوماً ربيعياً وقد حان وقت انصرافنا من المدرسة، واذ بي أسمع صرخات وعويل من أطفال فتيان وفتيات يصرخون ويصيحون وهم يقفون أمام باب المدرسة لا يتحركون، تغطي وجوههم أقنعة من الرعب والخوف، لم أفهم ما بهم، فجلّ ما أعلمه أنّ وقت مغادرتنا للمدرسة بمثابة عيدٍ لنا، ما إن تنتهي حصصنا الست حتى نسارع لنضع كتبنا في حقائبنا ونغادر مسرعين هذا الباب الحديدي الضخم الذي يشكّل باب مدرستنا، لكنّني في ذلك الوقت رأيت الأطفال غير راغبين في مغادرة المدرسة.

حاولتُ المرور من بين جموع الأطفال لأرى ما كان يمنعهم من الخروج، وتلقيت بمحاولتي هذه العديد من الصفعات والضربات على كتفي وعلى يدي، حتى استطعتُ الوصول، وكم كانت دهشتي كبيرة حينما رأيت رجلًا أشعث أغبر يجلس على الأرض وينبح كالكلاب، شعره يغطي أذنيه، ويديه مليئتين بالأتربة والأوساخ، وعليها آثار لجروح وكدمات حديثة العهد، وكلما رأى طفلًا ينقض عليه محاولًا عضه، كان منظراً مقززاً، وقد أخبرتنا الآنسات حينما أتين أنّه قد تعرّض ربما لعضة كلب شارد مستكلب، ومن يومها ازداد خوفي من الكلاب، خوفاً من أن ألقى المصير نفسه.

وازدادت شراسة هذا الرجل المستكلب مع كل حجرة صغيرة يرشقه بها أحد من الطلاب من حولي، وازداد معه صراخنا إلى أن اتصلت حضرة المديرة بالمختصين وأتوا لمساعدتنا وحمل هذا الرجل الكريه

بعيداً عنّا.

ربما ليس له ذنب ولكنه مخيف، وأصبح يشكل خطراً على الآخرين، وكم تمنيت لو أعرف ما المصير الذي سيلقاه.

وظل هذا الرجل حديثنا لفترة طويلة من الزمن، نفتتح به أحاديثنا ونودع به أصدقاءنا.

وربما لموقع مدرستنا دور رئيسي في جذب مثل هذا الرجل المشوّه إلينا، فهي تحتل منطقة نائية عن كل من حولها، ويحيط بها البساتين والأشجار والمساحات الخضراء من كافة أرجائها، ولا يجاورها سوى دار للعجزة، كنت أسميه دار للأموات، فلا صوت إلّا صوت الريح تجوب ممراته، وكأنّه زنزانة للسجناء لا يدخلها ولا يخرج منها أحد، وكثيراً ما تخيلتهم وأنا أراقب الدار من نافذة صفي المطلة عليهم يعذبون ويضربون دون أن يعلم بأمرهم أحد، أتخيل صراخهم المكبوت وألمهم المحبوس، عقاب يجر عقاب لفعل هم لم يقترفونه حتى لا يعلمون ما هو هذا الفعل الذي استحقوا به هذا العقاب الشنيع، ربما هو عقاب لوصولهم لمرحلة أرذل العمر وتربيتهم لأبناء قساة القلوب بصقوا في وجوههم، وتناسوا التعب والألم والخوف والفرح المصاحب لهم في كل مرحلة من مراحل عمرهم حتى أصبحوا ما هم عليه الآن رجالًا ونساءً آباءً وأمهات، وليجازوا والديهم برميهم تلك الرمية المذلّة، وتخيلتُ نفسي حين أكبر نزيلة هذه الدار التعيسة، ففزعت من هذا التخيل وانتابني الحزن على قاطنين هذا الدار.

وكذلك يحيط بمدرستنا نهر عميق يمرّ بالبستان المقابل للمدرسة، لونه مائل للسواد و رائحته كريهة، من شدة القاذورات المرمية فيه، وكنّا نلقى تحذيرات وانذارات مستمرة من قبل المعلمات بعدم الاقتراب منه،

مع التهديد بالطرد من المدرسة إن فعلنا هذا، لكي لا نلقى المصير نفسه الذي لاقاه طفل صغير سقط فيه، فيلقون باللوم على الصغار مع أنّهم المسؤولين المباشرين عن غرقه، لأنّه كان يفترض بهم ردم النهر قبل إنشاء هذه المدرسة، فلا أحد يستطيع منع كف القدر من الضرب.

لا أذكر هذه الحادثة، فقد حدثت قبل تسجيلي في المدرسة، لكنّني أذكر جيداً حادثة اغتصاب طالبة صغيرة في البستان الذي يقع خلف مدرستنا، حيث خرجت الطفلة قبل انتهاء الدوام الرسمي فأمسك بها أحد الرجال المشوهين عقلًا لا جسداً وجرّها مكبّلًا فمها إلى البستان ليستقر بين الأشجار ويجردها من ملابسها عنوة ويتلذذ بكل مكان في جسدها وبكل جزء وانحناء ثمّ يقتلها ويرميها أمام مدرستنا، ليمحي بذلك خطيئته ودليل نجاسته وغدره، لم يستطيعوا الامساك به مثل كثيرين غيره.

هذه القصة الرهيبة زلزلت علاقتي بالمدرسة وزادت من خوفي منها وخوفي على صديقتي الوحيدة آلاء التي كانت تضطر للمرور به يومياً للوصول لمنزلها، يرافقها أختها الصغيرة وابن عمها.

ومع الأيام تُنسى المصائب والأحزان، كما نسيت تلك الطفلة الصغيرة، ولم يعد أحد يذكرها أو يسرد قصتها، وكأنّها مشهد من مسلسل، لا واقع في الحياة.

واصلتُ اجتهادي ومواظبتي، إلى أن تجلّت محاولاتي الدؤوبة في الدراسة، باعتراف آخر من معلمة أخرى في الصف الخامس بقدرتي الرهيبة على حفظ ما في صفحات الكتاب من كلمات وأرقام وحتى جهة الصفحة ورقمها، لدرجة أنّها أعدّت لنا اختباراً في مادة العلوم ووضعتني لوحدي على طاولتها لأملي الاختبار أمامها، في حين أنّ

باقي زملائي وزميلاتي يجلسون في مقاعدهم المعتادة، أنهيت الاختبار وأعطيت ورقة الإجابة لمعلمتي، وحين قرأته قالت لي:

"بسرعة أحضر لي الكتاب الذي كنت تستندين عليه في الإجابة"

ظناً منها أنّه كتاب العلوم وأنني قد استرقت النظر إليه أثناء تأدية للاختبار، أحضرتُ لها الكتاب وكان كتاباً في الاجتماعيات، وهنا دهشت المعلمة وأكدّت لي أنني بارعة ولديّ ميزة رهيبة في حفظ الكلمات والنصوص ومواقعها وكأنّي أصورها في عقلي وأنسخ منها صوراً أخرى على ورقة الامتحان، ولم تكتفِ المعلمة بذلك بل ذهبت وأحضرت صديقاتها من المعلمات في الصفوف المجاورة وأرتهم ورقتي وأكدّت لهم موهبتي وكأنّها بذلك تثبت لهم دورها الفعّال في تعليمي وفضلها الكبير في ثقل موهبتي.

شعرت وقتها بتميزي، فأنا دوناً عن الآخرين تمتدحني المعلمة وتثني عليّ ، دمعت عيني ونظرت من النافذة كي لا يراني أحد من أصدقائي، كانت حينها السماء ملبدّة بالغيوم وداكنة والجو ماطر، وكان ذلك اليوم ذكرى خالدة لا تنسى لدي، ذكرى يوم شتوي في كانون الأول، وكانت الساعة في ذلك اليوم تقترب من الرابعة ، ففترة دوامنا كانت الظهيرة.

ففي مدرستي فترتي دوام، صباحية ومسائية، الفترة الصباحية تبدأ من الساعة السابعة والنصف وتنتهي في الثانية عشرة ونصف، وتُكنى المدرسة باسم آخر حيثُ تدعى " زيد بن حارثة" أمّا فترة الظهيرة فتبدأ من الساعة الواحدة حتى الساعة الرابعة والنصف وتُعرف مدرستنا في هذه الفترة باسم " عبد القادر الخرساء ."

ذلك اليوم كان محطة جميلة في حياتي، لا أنساه ما حييت، فقد جعلتني

المعلمة أشارك في رواد الطلائع، في قسم الأدب، وبالرغم من أنّني لم أبلي حسناً، لكنّني سعدت لمجرد المشاركة في حدث جلل له أهميته في مدرستنا، لا بل في المدارس جميعها، وربما فشلي يعود لقص والدتي لشعري الطويل الذي يصل لأسفل ظهري، فقد أغضبتها حينما أمسكت يدها ومنعتها من تسريح شعري لشدة ما آلمتني قبل ذهابي للمدرسة، فعاقبتني بذلك.

ولم أشارك مرة أخرى في رواد الطلائع، ربما بسبب أنّ المعلمة فقدت اهتمامها بي، أو شعرت بعدم موهبتي وبأنّ خيالها هو من أوحى لها أساساً بهذه الموهبة، فعدّتُ من جديد الطالبة المواظبة على دراستها دون أي شيء يميزني.

إلى أن جاء يوم عدّتُ فيه من المدرسة وذلك حين كنتُ في الصف السادس برفقة أخي الصغير، وفي أثناء عودتنا شعرتُ بإرهاقٍ شديد اجتاحني، قطّع أوصالي ومفاصلي، فجلستُ على الرصيف وشعرتُ بالغثيان والرغبة في الإقياء، وطلبت من أخي أن ينتظر معي لأستعيد عافيتي قبل أن نواصل سيرنا، كم شعرتُ يومها بأنّ الطريق طويل، وأجبرتُ نفسي على الاستمرار في السير ومع كل خطوة كنت أتمزق ألماً وتعباً، إلى أن وصلنا البيت فأحضرت لي أمي سريعاً شيئاً مالحاً أتناوله ظناً منها أنّ لدي هبوط في ضغط الدم ممّا سبب لي الدوار والتعب، لكنها زادت من حالتي سوءاً، فقد أفرغت أمعائي من كل ما تحتويه من طعام منذ الصباح، ثم أخبرتها برغبتي في النوم، واستغرقت في النوم لمدة ثلاث أو أربع ساعات كاملة، وحين استيقظت ازدادت شكواي من ألم في الرأس والمعدة وغثيان واقياء وشعور بالتعب والارهاق العام، مع تحول لون بولي للون الأحمر، وهذا ما أفزع والدتي ودفعها لاصطحابي لطبيب أطفال، وأخبرها بإصابتي بفيروس الكبد ولكنّه أخف أنواع الفيروسات التي تصيب الكبد،

وأعطاني وصـــفة طبية فيها الكثير من الأدوية ونصـــحني بالكثير من الحلويات وأعدّ لي تقريراً طبياً لأســـتطيع من خلاله البقاء في المنزل لمدة شـهر، وأمتنع عن الذهاب للمدرسـة، على اعتبار أنّه مرض معدي وينتقل بسرعة للأطفال الآخرين. وهكذا تغيّبتُ عن مدرستي لمدة شهر كامل، أقضـــي نهاري بتناول السـكاكر والحلوى التي يسـتطيع والداي توفيرها لي، بالإضـافة إلى البيض المسـلوق، ثمّ أشـاهد التلفاز بقنواته المحدودة الرسـمية، فالرسـيفر وأجهزة السـطلايات لم تصـل لبيتنا بعد، وكنّا بعيدين جداً عن أي عنصـــر من عناصـــر التطور والتقدم، ورغم قلّت القنوات إلّا أن ما كان يعرض عليهما يجذبني ويشـــدّ انتباهي، وخاصـــــةً ما كان يعرض على القناة الثانية يوم الجمعة " وهو يوم "العطلة الرســـمية في بلدنا في ذلك الوقت"، فهو يوم اجتماع العائلة كلها،

كنّـا أنـا وأخوتي نجلس وننتظر عرض فيلم يوم الجمعـة على القنـاة الثانية. ومع أنّ هذه الأفلام لم تكن حديثة مطلقاً، فلكي تبث على قناتنا السورية تحتاج لسنوات وسنوات بعد عرضـها على شـاشـات التلفاز، وكأنّ الدهر يرميها لنا بعد أن تهرم وتفقد بريقها لنعيد إحياءها من جديد، إلّا أنّها رغم ذلك كانت ذات حبكة ومتعة.

ولم تكن مشـــاهدة الأفلام متعتنا الوحيدة في يوم الجمعة، بل كذلك لمّة العائلة، فكنّا نجتمع على الفطور معاً بعد انتهاء صـــلاة الجمعة، لتكون وجبتنـا مميزة ومختلفة عن بـاقي أيـام الأســـبوع، فـإمّـا تكون نوع من أنواع الفتّات المشهورة بالبلدان العربية فتة بزيت أو فتة بسمنة، أو فول مدمس مع البندورة والمخلل والبصـــل، والى جانب الطبق الرئيســـي هناك الكثير من الحشائش من زعتر ونعنع وطرخون .

كان اجتماعنا معاً ذو سحر خاص بالنسبة لي، يشعرني بدفء الأسرة

الذي كثيراً ما افتقدته، فهو اليوم الذي نجالس فيه والدنا ونستأنس بحديثه وبحضوره وبشخصيته وبمزاحه معنا وحنانه علينا.

وقد كنتُ الطفلة المميزة لوالدي خلال سنوات دراستي الابتدائية، لا ينادي غيري، ولا يستمتع بالجلوس سوى إلى جانبي، وكنت ألبي نداءاته ولا أعترض أو أبدي أي تذمر، فإذا شعر بالحر كنت أقوم بإحضار مروحة يدوية وأجلس جواره أحركها لينتعش ببعض الهواء الصادر منها، وإن شعر بالبرد أدفئه ببعض الشراشف الموجودة لدينا.

وهكذا مضت فترة مرضي بشكل روتيني، الاستيقاظ متأخرة، لا ذهاب للمدرسة، البقاء في المنزل مع أمي حتى عودة أخوتي من مدرستهم، وهكذا كل يوم، إلى أن تغيرت حياتنا برحيل الضيفة المجهولة إلى العالم الآخر، مخلفة وراءها غرفة معتمة غريبة ذات رائحة مختلفة، رائحة الوحدة والخوف والقلق والحزن، رائحة الضيق والتذمر والكبت، رائحة الغضب والتوتر، وهذه الغرفة كانت جل ما ورثناه عن ضيفتنا.

"ها أنا الآن أنزع غبار الأمس عن روحي، وأمسح دموع طفولة لم تعرف معنى البراءة. لقد حملتني أيامي ثقلاً لم أختره، لكنني أرفض أن يكون ميراثي جرحاً ينزف ظلماً. سأتعلم كيف أنزع الأشواك من قلبي، وأزرع مكانها زهور التسامح. قد لا أستطيع محو ذاكرة الألم، لكنني سأكتب فصولاً جديدة تليق بإنسانيتي. فالحياة – رغم كل شيء – تستحق أن نعيشها بقلب نقي، حتى وإن ولدنا من رحم المعاناة."

مراهقة مع وقف التنفيذ

"دعوني أكون مجنوناً بعض الوقت؛ لأني أستمد جنوني من سبب وجيه." من رواية "موبي ديك" لهيرمان ملفيل (على لسان إسماعيل الشاب)

"كل شيء يبدو لي وكأنه تحدٍ. أريد أن أعيش، وأعيش بحدة، وهذا الشعور يدفعني أحياناً إلى فعل أشياء طائشة." ٠ من رواية "الأبله" لدوستويفسكي

"لقد أخبرتني كاليبورنيا أن عليّ أن أتعلم أن أكون سيدة، وأن أبدأ الآن... لكني لم أكن أرغب في أن أتعلم كيف أكون سيدة، كنت أريد أن أبقى كما أنا."من رواية "أن تقتل طائراً بريئاً" لهاربر لي (على لسان سكاوت)

"المراهق لا يثور ضد والديه لأنه يكرههم، بل يثور ليثبت أنه أصبح شخصاً مستقلاً." ٠ من كتاب "مراهقون" للدكتور سبوك (ملخص لفكرته)

بلغتُ من العمر الثالثة عشرة، وكنت عائدة من مدرستي الإعدادية، فقد انتقلت للصف السابع، وأثناء تغييري لملابسي شاهدتُ بقعاً كثيرة من الدماء قد غطت ملابســـي الداخلية، ففزعتُ وذهبت أخبر والدتي فوراً بما حصل لي، على اعتبار أنني لم أعرف أنّ هذا شيء طبيعي يحصل لكل فتاة حين تقترب من ســـن البلوغ، فلم تخبرني والدتي بذلك، ولم

تطلعني على ما هو سن البلوغ وما التغيرات المصاحبة له، حتى أنّها لم تجعلني أستعد ليومٍ كهذا اليوم.

ورغم أنني أصغر الفتيات، وهذا يعني أنّ أختيّ قد سبقتاني في المرور بسن البلوغ، إلا أنّني حين سألتهما قالتا لي: مجرد دماء تأتينا كل شهر.

لم تعلم الفتاتين ما تسمية هذا الشيء ولا طبيعة المرحلة الجديدة التي تمران بها.

وحين ذهبتُ لوالدتي قالت لي:

"لماذا لم تخبريني فوراً بذلك ... هيا بسرعة اشربي هذه الكأس من النشاء .... تجعل بشرتك تصبح أبيض... بدلًا من لونك هذا"

أنا: "ولماذا أشربه ... أنا لا أحبه".

أمي: "ستشربيه رغماً عنك ، أفهمت ... والّا لن تتزوجي وستبقين في وجهي للأبد".

أنا: "وماذا به لوني ... إنّه يعجبني ... لن أشربه".

وخرجت مسرعة وغاضبة من كلماتها القاسية، ويجول في فكري الكثير من الخواطر، فجل هم والدتي أن أصبح بيضاء كأختي الكبرى سارة، وأنّ هذا اللون هو المفضل للرجال دون سواه.

حدثت نفســـي: "يا إلهي .. ما هذا المجتمع الذي أعيش فيه، كم هو سخيف، كلُ من حولي لا يهمهم سوى الجمال، بشرة بيضاء وعيون ملونة وجسد ممتلئ.

وكأنّ كأساً من النشاء ستجعل بشرتي بيضاء ناصعة، وإن ولدت سمراء اللون، ولا أفهم هذه النظرة الدونية لذوات البشرة السمراء أو السوداء".

وانطلاقاً من اللحظة التي رأيت فيها الدماء انقلبت حياتي رأســاً على عقب، فلم أعد أســتطيع اللعب مع الصــبية ولا الخروج من المنزل لوحدي، وإذا خرجت يجب أن يرافقني أخي، كما فُرض عليّ الحجاب لأنني أصبحت كبيرة.

في البداية كنتُ أضع الحجاب، واذا شعرت أنّه يضايقني، وإن كنت في الطريق، كنتُ أنزعه عن رأسي ثمّ أضعه من جديد، وكنت ألقى الكثير من التوبيخ من والدتي على فعلتي المنكرة.

كما بدأت والدتي تستقبل العرسان لنا، فقد بلغنا ويمكننا الزواج، وبما أنّ أختي سارة كانت الأجمل على الاطلاق، فقد كانت حصتها أكبر من العرســان، ولكنّها كانت تســتقبل الموضــوع وفكرة العريس والزواج بسخط وغضب لا حدود لهما، فترمي بأغراضها على الأرض وتكسر أي شـــيء يقع أمامها وكانت ترتمي على الأرض وتضـــرب بقدميها وكأنّها طفلة ذات أربع سنين، وتصرخ وتبكي قائلة:

"لا أريد الزواج.. الله يلعنكم ويلعن هالعيشــة ... تريدون التخلص منّي .. لن أسمح لكم بهذا"..

ثمّ تضرب أختي فرح التي تصغرها بسنة واحدة، وتلومها لأنّها لم تكن جميلة، وكثيراً ما ألقت بها على الأرض أو ألقت بملابسها خارج المنزل فأختي سارة كانت نموذج الطفلة المدللة، التي لا تستطيع تحمّل مسؤولية نفسها لتتحمل مسؤولية عائلة بأكملها، ولذلك كانت تكره الارتباط بل وحتى تخشاه وتتوتر من سماع سيرة العريس والزاجة والارتباط ، لدرجة أنَّ البيت يصبح كجهنم من شدة الصراخ والجدال، ولا يرتاح لنا بال حتى تمر الأيام ولا يتصل العريس بنا ويسأل عن رأي العروس به، فدائماً ما كان الرفض يأتي من قبله، ربما لأنها حينما تستقبل العريس الزائر تكون على درجة من الاسوداد في القلب والروح، ممّا يُشعر الطرف الآخر بطاقة سلبية رهيبة، كثيراً ما كانت أمي تعتبر ما يحدث مع أختي على أنّه سحر.

ولم تكنْ فقط تكره الزواج لنفسها بل وأيضاً لجميع أخوتها، وتتمنى لو أنّ الجميع لا يرتبطون ويجلسون معها لخدمتها وتغنيجها وتدليعها كما كانت من قبل.

أمّا فرح فكانت تتمنى لو ترتبط وتجد شخصاً يحبها ويعوضها عن حزنها وألمها وشعورها بالنقص، إلا أنّ النسوة اللواتي يلتقين بها سرعان ما ينصرفن دون رد خبر، وكثيراً ما غادروا بيوتنا وعلى وجوههم إمارات الاستياء، وكأنّهم خدعوا فقد طلبوا الالتقاء ورؤية الفتاة البيضاء، وإذ بهم يرون فتاة شديدة السمرة، وهذا يعود لأنّ أختي سارة ترفض الدخول وتصيح، فتخجل والدتي من الضيوف وتجبر فرح على الدخول بدلاً منها.

وهذا ما سبب جرحاً عميقاً في قلب فرح لم تنسه أبداً، والى اليوم تظنُ نفسها أكثر النساء بشاعة على الاطلاق.

ولم أكن أنا ضمن هذه الدائرة، بسبب فارق العمر بيني وبين أختيّ ، وهذا ما جعل سارة شديدة الغيرة مني، تغار من حركاتي ومن كل ما أقول ومن تصرفاتي وترغب في تقليدي في أي شيء أقوم به أو أقوله، لدرجة أنّها

كانت تكتب عنّي في يومياتها، والتي كنتُ أطلع عليها دون علمها، حيث تصفني بالفتاة السخيفة والتي استحوذت على حب والديها وسرقت الأضواء منها، لدرجة أنّها كانت تراني سبب شقائها وتعاستها.

ولم يقتصر الأمر على هذا بل كانت تحاول جاهدة أن تفرض نفسها عليّ ، ظنّاً منها أنّني كفرح، أنحني لها وأسمع كلامها، إلا أنّها اكتشفت أنّني شخص لا يستهان به ولا يمكنها حتى مجاراته ولا محاولة السيطرة عليه.

وهذا زاد من حنقها عليّ وحسدها ورغبتها في موتي والتخلص مني لتعود لها سعادتها التي حرمت منها بسببي.

إلّا أنّ القدر إلى اليوم لم يستجب لأمنياتها الشريرة الدفينة، فها أنا اليوم على قيد الحياة أسطّر كل الأحداث وأخبر الوقائع وأسرد القصص.

وببلوغنا سن المراهقة اختفت ألعابنا ذات المضامين الجنسية، لتزداد المسافات فيما بيننا كأخوة لا يجمع بينهم سوى اسم العائلة فقط، كلٌ منّا وجد عالمه الخاص، فسارة انكبت على ممارسة أفضل هواياتها وهي الجلوس أمام التلفاز لدرجة الالتصاق به طوال النهار لا دراسة ولا

عمل ولا حتى مســـاعدة لوالدتي في أعمال المنزل، أمّا فرح فانكفأت على دراستها لتنال المراتب الأولى في جميع سنواتها الدراسية، ولتلقب ب " فأرة الكتب " لشدة نهمها للدراسة.

أمّا سـامي فانعزل عن الآخرين ومارس هوايته المفضـلة متمثلة في فك الأشـياء وإعادة تركيبها من جديد، واصـلاح الأعطال الكهربائية مهما كانت صـــعوبتها، فاعتبر بذلك الأكثر ذكاءً في العائلة، حيث كان ذكاؤه من النوع الميكانيكي.

بينما أنا شُغفت بالمطالعة وقراءة القصص والروايات، وأي كتاب كنتُ أسـتطيع الحصـول عليه، فكانت أسـرتي هي الكلمات، وأصـدقائي هم الحروف.

وتطورت قدرتي لأمارس الكتابة والتأليف، فكانت الرســـوم الكرتونية التي أقصّها وأقتطعها من الكتب تمثل عالماً ساحراً ومليئاً بالمغامرات، أُنشـأ بها شـخصـيات حية تتكلم وتحب وتلد وتتسـوق وتمارس حياتها بشكلٍ طبيعي.

ولم أكتفِ بالرســـوم الكرتونية التي أحييها، بل كذلك أزرار القميص وأزرار البنطال، كنتُ أخلق منها مدرســـة كاملة بما فيها من معلمين وموجهين وأطفال، وبالطبع كنت أحد هذه الأزرار والبطلة الرئيسية في هذه المدرسة.

في المدرســـة الاعدادية لم أكن من المتفوقات، لكنّي كنتُ مجتهدة وأحصـــل على علامات جيدة تجعلني في موقعٍ لا بأس به، لكنْ ما أثار غيظي هو المقارنة التي بدأت بدخولي المدرســـة الإعدادية ذاتها التي كانت فيها أختي، وهذا جعلني دائماً محط أنظار الآنسات، وكنّا يسألنني

دائماً؟ هل تشـــبهين فرح؟ هل أنت مجتهدة مثلها؟، كانت المقارنة في كثير من الأوقات بيني وبين فرح، وتتخللها في بعض الأحيان مقارنات بيني وبين ســـارة في الشـــكل فقط، فســـارة أبعد ما تكون عن أجواء المدرسة والدراسة ودائماً علاماتها متدنية، ولم تكن تنجح للصف التالي إلا بشق الأنفس.

وبالطبع لم يقتصـــر الأمر على المدرســـة فبيت جدتي كان الســـباق في مضـــمار المقارنات وخاصـــةً في الجمال وبياض البشـــرة والصـــحة والعينين العسليتين وغير ذلك، وفي كل مرة ذهبنا فيها لزيارتهم شددوا على جمال سارة وأكدوا أنّها ستتزوج قريباً ممّا كان يثير غيظها ويفاقم من غضـــبها وحقدها عليّ وعلى فرح، وأحياناً كثيرة كانت تترك منزل جدتي غاضبة وهي تصرخ وتلعن وتشتم والدتي ووالدي، ونحن بالتأكيد أخوتها كان ينالنا القسط الأكبر من هذه الشتائم واللعنات.

ولم تكنْ المقارنة معاناتنا الوحيدة، بل المشـــاحنات التي تدبُّ فجأة بين والديّ كعاصـــفة تجرف كل ما تمرُّ به، فتنالنا هذه العاصـــفة ببعض الصـفعات والضـربات واللكمات دون أي سـبب، فيكفي أن يقول والدي كلمة لترد عليه أمي حتى تبدأ المشاحنة وتشتعل، فينقلب بيتنا رأساً على عقب.

أحياناً يكفي تصـــرف صـــغير من قبلنا ليكون ســـبباً في حدوث هذه المعركة، فذات يوم كانت والدتي تحضر حفلة لإحدى أقاربها، وأبي في عمله، فتركنا نحن في المنزل لوحدنا، وهذا دفعنا لاســـتكشـــاف غرفة والدتي وأدوات مكياجها، وبدأنا بوضع مكياج على وجوهنا ، وهنا دخل والدي وثارت ثائرته لينهال علينا ضـــرباً بيديه وقدميه، وطردنا من

الغرفة، وحين عودة والدتي رمى عليها يمين الطلاق وطلقها وخرج من المنزل مسرعاً وصافقاً الباب وراءه بقوة وعنف، تاركاً والدتي في حالة يُرثى لها وكذلك نحن، ومرت الأيام حتى تصالحا وأعاد والدي والدتي لعصمته، لنعود لسلسلة المشاجرات من جديد مراراً وتكراراً ، على كل تافهة صغيرة، متناسين المشكلات الكبرى.

وربما كانت كلمة والدي المفضلة لوالدتي هي: أنت طالق، فلا يقوى على شيء سوى نطق هذه الكلمة بعد كل حوار بينهما، ومن ثم يذهب والدي لشيخ ليفتي له ، فيعيد أمي من جديد على عصمته، وبهذا أعتقد أننا نشأنا في جوٍ من الحرام، فأمي وأبي عاشا دون رابطة شرعية بل في ظل علاقة مشبوهة.

ومرّت علينا أيام كثيرة لم نذق فيها طعم النوم أو رائحة الهدوء أو السكينة.

وكان ذلك بسبب طريقة والدتي في معاملة أخي الصغير ودلالها ال الزائد له، ممّا أثار غيرة والدي، فانقلبت غيرته لكراهية لأخي سامي، رغم أنّه ولده الوحيد وحامل اسم العائلة، إلّا أنّ أبي لم يعد يرى فيه سوى عدوه اللدود الذي أخذ زوجته منه، وبدأ يشحن جميع طاقاته لمحاربة هذا الطفل، من خلال مناداته بـ " حمار" بدلًا من اسمه لدرجة أنّ أخي لم يعد يرد على أحد أو يلبي النداء إلّا إذا نوُدي له بهذا اللقب" حمار."

وقد حاولت والدتي باهتمامها بأخي تعويض ما عاناه من أبي من قسوة وضرب، فربطت نفسها بذكر أخر هو أخي، وأصبح همها الوحيد

ومســـتقبلها وحاضـــرها، ولم تعدْ تفكر في أحدٍ ســـواه، وكأنّ عائلتها اقتصرت على أخي فقط.

أمّا نحن الفتيات فأحياناً تشـــعر بنا وأحياناً تتناســـى وجودنا، وربما أنا وفرح كانت حصـتنا أكبر من الاهمال، في حين أنّ سـارة كانت أيضـاً تحت جناح والدتي فهي شـبيهتها في الشـكل والجسـم والصـدر البارز والمؤخرة الممتلئة، لذا كانت المفضـــلة، وحين تنظر إليها تلمع عيونها وترى فيهما بريقاً لاينطفئ، بينما حين تنظر إلي تنظر بقرف واشمئزاز وكأنها تنظر لكائن قبيح المنظر أو حشرة متعددة الأرجل مشعرة.

كثيراً ما كنتُ ألاحظ هذا التفاوت والتناقض في المعاملة فيما بيننا، فلم يعرف والداي كيف يتعاملون مع أطفالهم الأربعة بعدل، وربما لم يكن عليهم أن ينجبوا أربعة أطفال يكفيهم طفلًا واحداً، ليحســـنوا تربيتـه، وربما حتى لو كان لديهم طفل واحد لاختلفوا كيف ينشـؤوه، وهذا يعود لثقافتهم البسيطة حول الطرق السليمة في تربية الأطفال، وكذلك لرغبة كل منهم في تعويض النقص الذي لديه، فوالدتي كانت تشـعر بانخفاض رغبة والدي فيها كجســـد لا كروح وعقل، فلم تعد علاقتهما الجنســـية حميمية مثل السابق،

وربما لانخفاض قدرة والدي الجنســية، ومثلما يقول العوام من الناس " لم يعد ينفع كرجل" ، وهذا ما جعل والدتي تعوض حرمانها الجنســـي بالاتجاه لذكر يشابه زوجها، لديه ما له من أعضاء تناسلية ولكن الفرق أنّه ما زال فتياً، وهذا ما جعلها تستمر في إرضـاعه أربعة سنين كاملة بل وحتى خمس ســنين، ترضـــعه من صـــدرها وتتلذذ وهو يعض على ثدييها ويمتص منهما الحليب، وكم كانت ســـعادتها كبيرة وهي تقوم

بتنظيفه وتحميمه، فكانت تحممه كل يوم وتبقى ساعة أو ساعتين معه، تعتني بنظافة عضوه جيداً وتشرف بنفسها على خلع ملابسه وتلبيسه.

أمّا والدي فكان شعوره بالنقص الجنسي دافعاً له للانتقام من أخي ومنّا جميعاً، فكان يمشي عارياً في المنزل مستعرضاً أعضاؤه الجنسية الكبيرة.

أول مرة رأيت فيها أعضاؤه الجنسية انبهرت، حيث كنت في سن الرابعة عشرة، وكانت أعضاؤه كبيرة الحجم فعلاً، وكثيراً ما كان ينحني ليرينا المنظر بشكلٍ أفضل، واذا ما بدرنا منّا أي اعتراض على رؤيته بهذا المشهد كان ينهال علينا رفساً وضرباً وكأننا بهائم لديه.

وفي مراتٍ أخرى كان يمسك بوالدتي وينزع لها ملابسها الداخلية أمامنا ثمَ يمد يده لمؤخرتها وكأنّها لعبة يلعب بها ويستمتع.

وفي ظل هذا الجو الجنسي السخيف في منزلنا ومنزل جدتي نشأنا وترعرعنا، فبتُّ قلقة من هذا الموضوع، وزاد شعوري بالخوف من والدي من أن يفعل بي كما يفعل بأمي، فهو صاحب السلطة ولا يستطيع أحد أن يرفض له أي طلب أو أمر، ولهذا كنتُ أخاف البقاء معه في نفس المنزل لوحدنا، فتنتابني الوساوس من أن يُقبل إلي ويغتصبني، وفي حال اضطررتُ للبقاء معه في المنزل كنتُ أذهب لغرفتنا التي كانت غرفة

المجهولة سابقاً " غرفة جدتي" والتي أصبحت غرفتنا أنا وأخوتي، وأُقفل عليّ الباب منعاً له من الدخول واللحاق بي.

وتفاقمت مشـــكلتي، فلم يعد الخوف من والدي فقط بل انتقل لجميع أخوتي، فبتُّ أخاف منهم بسبب ما كنّا نقوم به من ألعابٍ جنسية ونحن صغار، من أن يتحرشوا بي جنسياً كذلك، وهذا جعلني أتجنبُ الجلوس معهم على نفس الكنبة أو البقاء في نفس الغرفة، لكنّني لم أتمكن من الانزواء بعيداً خلال النوم، فقد فرضـــت عليّ والدتي مشـــاطرة أختي سارة السرير نفسه في النوم.

فكنت ألفُّ نفسي بالشرشف وأغطي رأسي كاملاً، وإنْ كان الجو حاراً وخانقاً حتى لا تراني سارة فتتحرك هرموناتها الجنسية الداخلية وتمد يدها عليّ لتلمســـني، وأنام قرب حافة الســـرير لدرجة أنّ من يراني يحسب أنّني سأقع من عليه، وفي كل مرة كانت تسألني فيها والدتي لماذا أنام على الحافة، كنتُ أجيبها بأنني أشـــعر بالراحة وبقربي من الأرض، وهذا جعل والدتي تحسبني فتاة غريبة ومختلفة.

وما فاقم الوضع سوءاً هو أنّ سارة بسبب شعورها بملكية أي شيء تقع عيناها عليه، فقد اعتبرت السرير لها وحدها، ولا يحق لأحد مشاركتها، فكيف إذا كنتُ أنا عدوتها اللدودة من يشـــاركها ملكيتها، فتتحرك في السرير وتمد يديها وقدميها وكأنّها تسبح، أو تترك السرير كله لتقترب مني وتدفعني، ربما لأقع وربما لما كنتُ أحسبه من تحرش في.

وتأكدّت مخاوفي من أختي ســـارة، حين تكرر الموقف في كل ليلة، وحتى أثناء النهار، كانت إذا وقفت أمام باب الغرفة وأرادت الدخول لم تكن لتبتعد وتسمح لي بالدخول حتى يحتك جسدها بجسدي وخاصةً المنطقة السفلى،

وكذلك كان رفضــها للزواج من أي شــاب أو رجل يتقدمُ لها ســبباً آخر في تعزيز مشاعري نحوها.

فسارة لم تكن سوية جنسياً بل شاذة وتميل للنساء وتستلطفهم، فكثيراً ما شــاهدتها تضــرب أختي فرح على مؤخرتها برقة مراراً وتكراراً ، أو تمسك

بثديّ فرح الصــغيرين، فرغم أنّ فرح بلغت مثل ســارة إلّا أنّ جســدها بقي طفولياً لم ينمو ولم تظهر فيه الملامح الأنثوية، أمّا ســـارة فقد أصبحت ذات صدر ضخم ممتلئ ومؤخرة مدورة وممتلئة.

وفي كل شـهر كنّا نعاني الصـداع من سـارة وصـراخها لدرجة العويل، فشـــعورها الداخلي بأنّها رجل كان يزيد من كرهها للدورة الشـــهرية، فتضــرب بيديها وقدميها الأرض في كل مرة تأتيها، بل وحتى تصــرخ وتشتم وتلعن والدتي لأنّها أنجبتها كأنثى وليس كذكر.

وبـالرغم من أنّ الملامح الانثويـة لا تنقص ســـارة، كـانـت الملامح الذكورية لا تنقصـها كذلك، فقد كانت مشـعرة، وذات شـعر أسـود مجعد وغزير ينتشـــر في كافة أنحاء جســـدها حتى رقبتها وبطنها وثدييها وظهرها، أمّا الحصـــة الأكبر من هذا الشــعر فقد نالته مؤخرتها، وكأنّ أعشـــاباً نمت في تلك المنطقة وخاصـــةً من الأمام، ولم تكن ترغب في نزعها أو الاهتمام بنظافتها، وليس هذا فحســـب بل أعتقد أنّها كانت تتبـاهى بهـا وتؤكد من خلالهـا أنّهـا ربمـا تكون رجلًا أكثر من كونهـا أنثى.

وكذلك تصــرفاتها وحركاتها تثبت هذه النظرية، وتشــير لشــذوذ أختي وعدم سوائها، لا جسدياً ولا نفسياً، فتمشي كرجل تضرب قدميها ضرباً على الأرض، وتجلس وهي تباعد بين قدميها مسافة كبيرة، واذا غضبت ارتفع صوتها وأصبح خشناً وانهالت علينا بالشتائم القبيحة.

ولم يشــعر والداي بالمشــكلة الكبيرة التي تعانيها ســارة، وربما حتى لم يهتما بذلك، بل عداه أمراً طبيعياً تمرُّ به كونها أصـــبحت في مرحلة المراهقة، رغم أنّهما لا يعلمان حتى ما معنى كلمة مراهقة، إلّا أنّهما يدعيان ثقافتهما بتغيرات هذه المرحلة هرمونياً ونفســـياً، فكانت ردّة الفعل لكل منهما مضــحكة للغاية، فوالدتي كلما غضــبت ســارة وشــتمتها ســرّت وضــحكت وكأنّ أحداً يمســك بها ويثير مناطق الضــحك لديها، بينما والدي يقول: هذه الفتاة ســرُ أبيها، وكأنّ من الفخر أن تشــتم الفتاة كما يشتم أبوها.

ومع كل غلاظة أختي ســارة وكلامها الشــنيع كانت محط أنظار الجميع، كلما رآها أحدهم قال: "بسـم الله ... ما هذا الجمال... يا إلهي أنت رائعة ... هل تزوجونها."

ونظراً لهذا المديح المتتالي من الجميع وغرابة تصــرفات أختي وعقلها الطفولي الذي لم ينمو أبداً رغم أنّها تجاوزت الطفولة وانتقلت لمرحلة أخرى، لم تســتطع النجاح في دراســتها بل وحتى لم يكن يعنيها الأمر، فليس من عادتها أن تجتهد لشــيء، لأنّها تربت على أنّ أي شــيء تريده تحصل عليه فوراً دون أن تتعب نفسها، فتوقعت أنّ الدراسة شبيهة كل شـــيء، يكفي أنْ تريد النجاح حتى يأتيها على طبق من ذهب وليس من

فضـــة، لكن ليس كل الأمنيات محققة، فخاب ظنّها ورســـبت في عدة سنوات دراسية، إلى أنْ تركت الدراسة نهائياً وجلست في المنزل.

بينما مراهقة فرح كانت ألطف نوعاً ما، رغم أنّها عانت من جســـدها الطفولي، إلّا أنّ عقلها دراسياً كان نامياً حقاً، فاستطاعت التميز وبهرت الجميع بتفوقها وحصـولها على أعلى الدرجات وكأنّها تثبت للجميع أنّها موجودة.

لكنّها اجتماعياً لم تنمو وظلّت حبيســـة طفولتها، فحين نذهب لزيارة العائلة، لا تسـلّم على أحد بل تبقى خلفنا وكأنها تحت جناحنا، ولا تبادر للحديث بأي موضـــوع، فقط تكتفي بالاســـتماع وتحريك رأســـها يمنةً ويسـرى، وإنْ أحد من الحاضـرين وجّه لها سـؤالًا تغادر الغرفة فوراً وتنســـحب منها وكأنّ الموضـــوع لا يهمها، أمّا إذا بادرها شـــخص ما بالإهانة كما قال لها يوماً ما زوج خالتي:

"يا حرام ... ربما لن تتزوجي أبداً في حياتك."

فتكون ردّة فعلها أنْ تبكي فقط دون حتى أنْ تصـدر صـوتاً خوفاً من أن يســـمعها الآخرون، وكثيراً ما كانت تتلقى مثل هذه العبارات بدموعٍ وحزٍ، دون حتى أن ترد أو تقول شـــيء للطرف الآخر، فمنهم من كان يقول لها: أنت بشـعة، لا تشـبهين والدتك بشـيء، وآخر: الله يكون بعون والدتك، سـتبقين ملازمةً لها طوال حياتك، وآخر : صـحيح أنّك سـوداء لكن لا بأس فأنت بالأخير من صنع الله، وآخر .....وهكذا.

لا أعلم إلى اليوم كيف صـــمدت فرح أمام كل هذه الترهات التي يتفوه بها هؤلاء القوم، الذي يمثلون عائلتنا، بل هم أشـــبه بقاض يحكم علينا بالإعدام، أو قنّاص يريد الانتقام منّا.

ويوم إثر آخر وسنة إثر أخرى، ومع ازدياد نحول فرح، وازدياد سمرتها، تعلمت التقوقع على نفسها وخلقت جداراً بينها وبين الآخرين، جداراً من الوحدة والألم شيدته بدموعها الغزيرة.

وبالطبع لم يكن والداي قادرين على فعل أي شيء لفرح أو حتى مساندتها وتشجيعها، بل كانت والدتي تزيد الأمر سوءاً بكلامها حين تقول لها: لا يوجد فتاة لن تتزوج، كل فتاة مصيرها الزواج، حتى وإنْ كانت بشعة، أمّا أبي فيقول لها: " أنت تشبهين عمتك، فهي أيضاً كانت بشعة، وقد تزوجت."

حين أسمع والداي أحسبهما شخصين غريبين عنّا، لا مشاعر أبوة ولا مشاعر أمومة، ربما أغفر لأبي لأنّه لم يعرف معنى هاتين الكلمتين " الأب والأم" ، لكنّي لا أغفر لأمي التي تربت في جوٍ عائلي أفضل نوعاً ما، لكنْ مع هذا ربما كونها جميلة واعتراف الآخرين بجمالها جعلها لا تعرف معنى الشعور الذي تشعر به ابنتها فرح، فلا يقدر النعمة إلّا من فقدها.

كثيراً ما قرأت أنّ الله سبحانه يوزع الأرزاق بالتساوي على جميع خلقه، وأنّ كل انسان ميزه الله بشيءٍ عن غيره، وأنّه يكفي أنّ الله خلقك فأنت جميل، أليس الجميل من صنعه، فكيف وهو يملك صفة الجمال فلن يصنع شيئاً بشعاً.

فالجمال والصحة والقوة والنباهة والقدرة على التواصل والمرونة والذكاء كلها أرزاق، لكننّا نحن البشر لا نقدّر نعم الله علينا، فنرغب في تملك كل شيء، وليس هذا فحسب بل نتمنى زوال النعمة عن غيرنا،

لنشعره بتفوقنا عليه، وبأنّنا أقرب إلى الله، فنحن من أعطانا كل شيء ، أمّا أنت فانظر لنفسك!!!!!!.

فسارة مثلًا ترغب في جسد أختها فرح، وتتمنى لو أنّها لا تمتلك هذه المظاهر الأنثوية، أمّا فرح فتتمنى لو خلقت كسارة، وربما الاختلاف الوحيد بينهما أنّ سارة تتمنى لو أنّ فرح لم تكن موجودة أصلًا في حياتها، وليست فرح فقط بل تتمنى لو أننّا جميعاً اختفينا، فتبقى هي مدللة العائلة الوحيدة.

أمّا مراهقتي فكانت في تقلبٍ مستمر، بكاءٌ كل ليلة بسبب خوفي من سارة ومشاطرتي لها السرير نفسه، ثمّ دعائي وصلاتي أن يحفظني الله منها، ثمّ قلقي من أنّها تقوم بلمسي كل ليلة في مؤخرتي دون أن أشعر لتغسل منطقتي كلها بلسانها، وكذلك خوفي من والدي، وتوتري من المشاحنات

والمشاجرات التي تنشب كل يوم دون توقف، وكذلك المشكلات التي كانت تخلقها سارة لأتفه الأسباب وضربها المستمر لفرح كلما غضبت من أحدهم، وكلما قالوا لها " لسارة :" "أنت جميلة."

فهي شكلياً تكره أن يقولوا لها أو أن يصفوها بأنّها جميلة خوفاً من أن يدبروا لها زوجاً أو عريساً أو خاطباً، لكنّها تكره أنْ ترى من هنَّ أجمل منها.

وأحسب أنّه لو اجتمع جيش من المعالجين النفسيين ليفهموا أختي لعجزوا عن هذا، فكيف لي بفهمها ومحاورتها، ومهما حاول الفرد النقاش معها لن يخرج بنتيجة على الإطلاق.

وتمضـــي بنا الحياة دون أن نعلم إلى أين ذاهبون، أو ما الذي قد فعلناه بها، أو ما هي رســـالتنا، ربما لم نكن يوماً شـــيئاً، كذرة رمل تمرُّ في الهواء لا يشـــعر بها أحد، بل نحنا ربما لم نصـــل لنكون ذرة رمل، فقد تدخل ذرة الرمل عينك فتؤلمك، في حين أننا مررنا في هذه الحياة دون أنْ نترك أثراً لدى أحد، فقد كان جلُّ همنا بالحياة الجنس والزواج والعريس والعروس والعرس والأطفال، لا شيء آخر.

حتى أطفالنا لم نعرف كيف نتعامل معهم ولا كيف نزرع فيهم قيماً أخلاقية، وأقصد بذلك عائلتنا الكبرى، عائلة جدي.

واذا ما عدّتُ لمراهقتي لرأيتها خالية من الحنان والحب والســـعادة والأمل، مليئة بالأحزان، ومهما ضغطت على ذاكرتي لا أستطيع تذكر كل ما مررتُ به من أحداث بتفاصيلها الدقيقة، فالذاكرة أيضاً تتعب من ثقل ما تحمله، ولهذا تجدها ترمي مخلفاتها التي مرّت عليها الســـنين، لتستطيع متابعة الحياة مع صاحبها.

تقاعد والدي وبلغ السن القانوني لترك العمل وهو الستين، وقد أصابه هذا بصـــدمةٍ كبيرة، واحســـاسٍ كبيرٍ بالفراغ، لم يعرف كيف يداويه، لهذا تجده يســـتيقظ صـــباحاً كأنّه ذاهبٌ لعمله كالمعتاد، فيخرج للحارة ويقوم بتنظيفها وتكنيسها من الأوساخ من أولها لآخرها، لدرجة أنّ أهل الحارة اعتقدوا أنّه قد عُيّن عامل نظافة لحارتنا بدلاً من عامل النظافة القديم الذي لا يمر حتى بحارتنا ولا يراها، فيدع ما بها من أوســـاخ تتراكم على مر الأســـابيع والأشـــهر، بل وكأننا في مقلب للقمامة ليس لحارتنا فقط بل لجميع الحارات التي تحيط بنا.

وبعد انتهاء مهمته الصباحية تراه يعود منهكاً، ومليئاً بالأوساخ، لكنّه لا يجلس ليستريح بل يسارع لتنظيف المنزل من الأوراق التي تتكدّس بفعل الرياح، ومن ثمّ يصعدُ للسطح، فيسقي ويرش النباتات المنزلية من ورود وأزهار وفل وباقي النباتات التي ذكرتها سابقاً، وبعدها ينطلق ليحضر لنا طعاماً للفطار، من طبق فول أو طبق فتّة وغيرها.

كانت هذه المهمات التي يقوم بها يومياً دون كللٍ أو ملل، ربما في بداية تقاعده كانت هذه المهمات تؤنس وحدته وتملي عليه وقت فراغه، لكنّها لاحقاً مع مرور الزمن لم تعد ذات نفعٍ له، بل أصبحت عبء إضافي على صحته، وهذا زاد من انفعاله وتوتره، فأصبح يضيق بمن حوله ويغضب لأتفه الأسباب ويتأفف من أي تصرف يبدر منّا أو من أمي، وبما أنّه قبل التقاعد لم يكن يقضي معنا وقتاً طويلًا وبهذا لم يكن يعرف تماماً كيف نقضي وقتنا وماذا نفعل وماذا نلعب، فقد أصبح الآن دقيق الملاحظة على أي سلوك يبدر من أبنائه، وهذا ما جعله أكثر ضرباً من ذي قبل،

وأكثر عنفاً وايذاءً لنا، من ضربٍ للوجه إلى رفسٍ إلى بصقٍ في الوجه ، وشتمٍ ولعنٍ و.....

كما زادت غيرته من أخي لدرجة كرهه له، وربما بهذا يلوم جنسه الذكوري، ويتمنى لو كان أخي أنثى، فمع تقدم أخي في العمر بدأ أبي يشعر بخوفٍ متزايدٍ من أن يكتشف أمر هروبه من الالتحاق بالجيش، معتقداً أنّ أخي سيسلمه بنفسه للجيش حين يبلغ من العمر الثمانية عشرة عاماً، فبلوغه هذا السن يتوجب عليه أن يتقدم للجهات المعنية ويقدم

الأوراق الثبوتية التي تؤكد أنّه وحيد لعائلته، وهذا بالطبع سيفضح ما خبأه والدي من سنين وسنين.

وباتت المشكلات زاد يومنا، وشمس صباحنا وقمر ليلنا، فلم يمر يوم دون أن ينتهي بمأدبة حزنٍ وبكاء على فازة حُركت من مكانها وعلى كنبة أديرت بشكلٍ خاطئ، أو على طعامٍ مالحٍ قليلًا، أو طعامٍ بلا ملح، وغيرها من أمور تافهة لا ترقى حتى لمجرد الالتفات إليها.

مرّت السنون سريعاً دون حتى أنْ نشعر بقيمتها وأهميتها، وهكذا الانسان لا يشعر بقيمة الأشياء حتى يفقدها.

فإذا ما قدر للإنسان أن يعيش فليعش كل لحظة كأنها آخر لحظة ،وليستغل كل تفصيل مهما صغر في حياته ليفرح به، ولينسى كل ألم مر به، مهما كان حجمه، فتبقى الحياة أجمل بما أوتينا فيها من صحة أو من جمال أو من مال، فالنعم كثيرة ولا تقدر بثمن، فمن ملك جزءاً منها فليحمد الله وليشكره، لأنّ هناك كثيرون لا يملكونها على الإطلاق.

وحين بلغت من العمر الثامنة عشرة، توفت جدتي والدة أمي، أصابتها جلطة قلبية إثر مناوشات وخلافات شهدتها بين أبنائها قبل موتها، فقد

اجتمعت العائلة في يومٍ سابق لرحيل جدتي، وكان هذا اجتماعهم الأخير، ففي هذا اليوم اتخذت كل امرأة)من خالاتي(منهن زاوية أو موقعاً لتنزوي به وتنعزل عن الأخريات بحيث تدير ظهرها لهن وتحجب وجهها عن رؤيتهن، أمّا نحن الأبناء فلم نهتم بمشكلاتهم الداخلية، بل افترقنا عنهم وجلسنا في غرفة أخرى وتحدثنا في أمورٍ شتى.

ولم تكن خلافاتهم ذات قيمة، فإحدى خالاتي قد اتخذت موقفاً من أختها، لأنّها وصفتها بـــــ " سمينة أو بدينة"، أمّا الأخرى فقد أزعجها عدم اتصـــال أخوتها بها يومياً وكأنّه واجبٌ قومي على الجميع الالتزام به، والأخرى لم تصل باكراً لمنزل الجدة ممّا أغضب الأخريات وهكذا.

ولم تهتم أيٌ منهن بهذه الأم المســـكينة التي تراهنّ مختلفات متفرقات، فأُغميَ عليها في اليوم التالي وأســـعفت للمشـــفى، وهناك انتقلت إلى باريها ربما سعيدة وربما حزينة، لا أحد يعلم.

وربما حزن الفقيد من أكثر الأحزان التي تتلاشـــى ســـريعاً، فلم يمض وقتٌ طويل حتى عاد كلُ شـيء لما كان عليه سـابقاً، عاد أبي لضـربه لأمي، وعادت أمي للاهتمام بأخي وأختي ســـارة فقط، وعادت كل من خالاتي لحياتها المعتادة، ولم تبق سـوى خالتي صـباح أسـيرة أحزانها، وأسـيرة وحدتها، فقد عاشـت مع جدتي ما يقارب السـبعون عاماً، دون زواج ودون ولد، ودون صـديق، كانت جدتي صـديقتها وزوجها وأختها وابنتها، وفجأة فقدت كل أسـرتها، فقدت حضـناً دافئاً لا يعوض، وسـنداً لا ينكســـر، ويداً ممدودةً لها، ودعاءً لا ينقطع، وهذا جعلها في حزن وألم، ممّا دفع أخيهـا الصـــغير أيمن للوقوف بجـانبهـا، فطلـب منهـا مشـاركته السـكن مع زوجته وأبنائه، ليكون لها عوناً، فقبلت دون تردد وانتقلت للســـكن معه، بعد أن قررت العائلة بالإجماع بيع منزل جدتي وتقاسم الورثة فيما بينهم.

وكأنّ الموت حين يأتي لا يكفيه شـــخص واحد ليشـــبع به جوعه، حيثُ لحق والدي بجدتي سريعاً بعد مصارعة للمرض استمرت شهرين، ففي ليلة باردة اسـتيقظنا على صـراخ والدي، الذي كان مرمياً في الحمام لا

يســـتطيع النهوض منه، ووجهه أزرق وصـــوته مخنوق، كان ينادي ويقول: "يا أولاد ... ساعدوني ... يا أولادي ساعدوني."

ربما اعترف بنا وهو في لحظة ضـعف وكسـر، اعترف بأبوته تجاهنا، واعترف بحاجته لنا، وكان هذا آخر اعتراف وآخر ما قاله وما سـمعناه منه، فمنذ تلك اللحظة لم يعد يسـتطيع الكلام، أسـرعنا بنقله للمشـفى، وهي مشـــفى حكومي مجـاني بـاعتبـار أننـا لا نملـك المـال الكـافي لاصـطحابه لمشـفىً خاص، تمّ اسـعافه وادخاله العناية المشـددّة، حيث لبث فيها ما يقارب الشـــهر، كانت والدتي معه لا تفارقه، تســتيقظ معه وتنام معه، وبالرغم من أنّ غرفة العناية لا يسـمح بدخولها أحد، إلّا أنّ الأطباء قد ســـمحوا لوالدتي بالبقاء مع زوجها نظراً لصـــياح والدي واهتياجه وصـــراخه الذي لا يتوقف، ولم يكن يقبل دواءً من يدي أحدٍ من الممرضـــات، ولهذا أصـــبحت والدتي شـــريكته بالمرض وبالغرفة، تحصـي عدد نبضـات قلبه، وتحصـي مقدار تنفسـه، تدعو له بصـلاتها أن يشـفيه الله، وتدعو لنفسـها بالرحمة، فقد نالت من أبي ما هو فوق طاقتها على التحمّل، فبمرض والدي تدهورت أخلاقه وانحلت، فلم يعد ينـادي والدتي ســـوى " هبلة ، حمارة ، حيوانية ....)) عذراً ((، وغيرها من المصـطلحات، وان تأخرت في تلبية طلبه رمى بها بقدمه ونالت رفسـةً قويةً منه، وإنْ أحضـــرت له شـــيئاً لا يريده كدواء ولا يحبه، أمســـك بيدها وشدّ عليها ولفها، وكأنّه يلف حبلًا أو قطعة غسيل.

كان صـــبر والدتي يفوق أي صـــبر، ولم تكن لها ســـلوى ســـوى الدموع لتخفف من أحزانها.

وبعد صراع وأخذ ورد ما بين صحوة وغفوة، تعافى والدي قليلًا وربما لم يعد يُرجى منه الشـــفاء، فقد قرر الأطباء الســـماح له بالخروج من المشـــفى، لتبدأ مرحلة أخرى من الألم والعذاب، لربما هي المرحلة الأخيرة، فقد أصبح والدي حاضر الجسد غائب الفكر، حاضر الروح غائب الوجدان والمشاعر، فمرة يحسب نفسه صاحب أملاك وأطيان، وصاحب مزرعة للخيول، فيطلب من أخي الصغير سامي أن يحضر له الخيول ليتأكد من ســـلامتها وصـــحتها البدنية، وهنا لم يعلم أخي ماذا يفعل، واهتاج والدي وانفعل وظنّ أنّ أخي يرفض طلبه، معتقداً بأنّ ســـامي هو أحد الخدم لديه، وهذا ما جعله أكثر جنوناً، فكيف بالخدم يرفضون أوامر أسيادهم، فاندفع يضربه بيديه رغم ضعفهما وبقدميه رغم تقوسهما، ومهما حاولنا لم نستطع تخليص أخي وتحريره من بين يديه، ولم يتوقف حتى ناله من التعب الكثير، ونالت من أخي الدماء والكدمات، فقد انفجرت الدماء في وجهه كما ينفجر الينبوع من شـــقٍ صـــغير في الأرض، ولنرضـــي أبي ونمنع تكرار ما حدث لأخي، قمنا بخداعه، حيثُ طلبنا من جارٍ لنا أن يأتي إلينا ويزعم أنّه المالك الجديد للخيول، وأنّ أبي قد باعه الخيول نظراً لرغبته في ردم المزرعة واســـتثمار الأرض بمشـــروعٍ ضـــخم، ومن حديثٍ لآخر اقتنع والدي بكلامه، وحمدنا الله على ذلك.

وفي يومٍ آخر ظنّ والدي نفســـه أنّه توفى، وأخذ ينعي نفســـه، ويقول: "ترحموا على إبراهيم ، يا أهل الجيرة ترحموا عليه"، وظلّ طوال النهار يترحم على نفســـه ويوصـــي بدفنه في الحوض الكبير الذي لدينا في فسحة منزلنا.

ولم يتوقف خيال والدي عن السفر به من مجرة لأخرى، فمن رجل غني لرجل مشهور لرجل دين .... وهكذا، كل يوم.

حتى حانت لحظة الوداع والرحيل، توقفت كل أعضائه عن العمل وكأنّها عطلت تماماً، ولم يعد يشعر بشيء لا ألم ولا فرح ولا حزن، لا شيء البتة، وما بين خوفنا وارتياحنا ... ألمنا وسكينتنا ... نقلناه للمستشفى، وهناك أعلنوا نبأ وفاته مرددين الكلمة نفسها : العمر لكم، كآلة تسجيل بلا روح وبلا مشاعر، بلا قلوب وبلا عواطف، أو ربما اعتادوا الوفاة كما اعتادوا الحياة.

بدأنا بتحضير مراسم الدفن، وما ساعدنا في إخراج ورقة الدفن بالرغم من أنّه دون هوية رسمية هو ادعاءنا بأننا قد أضعنا هويته في المشفى، فأخذنا الرخصة بالدفن، وكانت جنازته خالية ، لم يشارك فيها سوى أخي الصغير فقط والشيخ الذي صلّى عليه وقرأ له بعض الآيات، كان وحيداً في حياته ووحيداً حين وفاته، حتى أخيه وأخته لم يحضرا جنازته، بل ربما كان خبر وفاته هو أكثر الأخبار السارة التي سمعوا بها، كما أنّهم لم يرغبون بمساعدة والدتي مادياً لشراء قبرٍ له، رغم أنّهم يعرفون فقرنا وعوزنا، فاضطرت والدتي لأن تستلف بعض المال من أختها صباح، التي أكدّت عليها بدورها أنّ هذا المال دين وليس هبة أو عطية، وأنّ عليها إرجاعه في أسرع وقت.

دُفن والدي، دُفن الأب، دُفن رمز الرجولة بالنسبة لكل ابنة، وإنْ لم نكن قد شـــعرنا بأبوته يوماً، إلا أنّ حزننا عليه كان كبيراً، فبوفاته تقدمت أمي بالعمر دهراً كاملًا، فقد أصـبحت المسـؤولة كلياً عن عائلة بأربعة أبناء غريبين شـــاذين مختلفين، وربما هم مرضـــى نفســـيين نوعاً ما، مســـؤولة عن تأمين الطعام لهم واللباس وما إلى ذلك، فشـــاخت قبل أوانها.

ونظراً لتربية والدتي الزائدة لأخي واهتمامها المضـــاعف به، فقد كبر ليكون عالة على نفســه قبل ســواه، فلم يحســن أي عمل، وإن هو حاول فشـــل، كفّ عن البحث واجهاد النفس واكتفى بدراســـته، حيثُ التحق بكلية التجارة، وكان همّه الوحيد هو النجاح فيها، مؤكدّاً لوالدتي أنّ عمله بعد التخرج سيكون أفضل وذا نفع للجميع.

أمّا أختي سارة، فلم تستطع النجاح بدراستها، ولهذا سكنت المنزل كما تسكنه الأشباح، فقد باتت تفضل الانزواء في الأماكن الضيقة كسقيفة المونة، وهي مخزن نخبأ به المونة أو الطعام الذي لا نحتاجه الآن وانّما نخزنه لوقت الحاجة، ولا تهتم بشيء لا منزل ولا عمل ولا فكر، فقط تجلس وتراقب الأرض وكأنّها تتحين اللحظة المناسبة للانقضاض على فريستها، أو تخبر سكان تحت الأرض بما عليهم فعله لجعل أهل هذا البيت تعساء وفشلة مثلها، ولا تستكان لحظة وهي تدعي علينا ملئ فمها بأنّ يحترق منزلنا ونحترق معه أو أن يأخذنا الله جميعاً وتبقى هي سكينة هذا المنزل وحدها.

بينما فرح كانت الأفضـــل بيننا، فقد تابعت دراســـتها في كلية الحقوق وعملت مع دراســتها، كمدرّســة خصــوصــية، متنقلةً من منزل طالبٍ

لآخر، ومن منزل طالبة لأخرى، دون كلل، طوال النهار حتى يأتي الليل وتكون قواها قد انهارت، لتكتفي بما قد رزقها الله ، ولتعود لمنزلها راضية داعية لله بتوسيع الرزق، ومع تعبها هذا كان ينالها الكثير من سارة، من صراخ إلى ضرب، فقد ورثت عن والدي الكثير من الصفات وأهمها الصراخ والسب والشتم والضرب.

وبالمقابل لم تكن فرح تفقد روحها الهادئة الراضية، بل تكتفي بالابتسام في وجه سارة ومن ثمّ تذهب للنوم والدموع على وجنتيها.

في حين أنني سلكتُ مسلكاً مختلفاً، فلم أكن كأخي ولم أكن كأختي فرح، تابعت دراستي في كلية الفلسفة، وحاولت دائماً الحصول على المرتبة الأولى لأظفر بمبلغٍ من المال يكفي لدراستي وملابسي ومصروفي الخاص، ويزيد منه القليل لأعطيه لوالدتي، وبهذا حاولت ألا أكون عالة على أحد.

كانت حياتنا من فقرٍ لآخر ومن انحدار لآخر، ومن المفارقة، أننّا نعيش لنكسب قرشاً واحداً (عملة محلية قديمة من النقود)، في حين أنّ آخرون من عائلتنا يرمون النقود على الأرض كما يرمون أمتعتهم وألعابهم، ويدهسونها بأقدامهم دون أنْ ينتبهوا.

حين يكثر ويتكدس شيءٌ ما عند أحدنا يفقد أهميته ويصبح الأمر اعتيادياً، ويحسب أنّ هذا الشيء يملكه الجميع دون استثناء، إلّا أنّهم يتناسون أناسٌ هم بأشدّ الحاجة لجزء من هذا الشيء.

كنتُ أنظر لهذه النقود والحسرة تملؤ قلبي، وتتملكني الرغبة في الاستيلاء على ما يعدّه أصحابه شيء زائد عن الحاجة، فهو لن ينقص

ممّا يملكونـه ولو مقدار ذرة، إلّا أنني أعود لرشـــدي وأذكر أنّ الله يراقبني وأنّ المال كما علمتني والدتي ليس كل شـــيء، المهم الكرامة والرضـا، هذا ما حاولت أمي غرسه فينا منذ ولادتنا، وتبقى أمي جديرة بأمومتها رغم كل شيء.

وبهذا كانت تسير حياتنا ما بين رضـا واقتناع، وما بين نقمة ورغبة في التغيير، ما بين شهوة للمال، وبين صبر ودعاء.

ولم تتوقف عجلة الحياة عن الدوران، فهي لا تنتظر مريضـاً ليشـفى ولا حزيناً ليسعد ولا شقياً ليرضـا، تبقى في حركة مستمرة بأمر سماوي لا دخل ولا يد للبشر فيها.

وبهذا كان علينا أن نســـتمر في الحياة، مهما تعبنا ومهما نالت منّا، فلم تنتهي رحلتنا بعد، والى أن نفارقها يتوجب علينا الصـــمود في وجهها، فتابع كلٌ منّا مهمته ودوره، إنْ كان مقتنع به أو غير مقتنع.

ولكنّ الحياة لم ترغب في روتين ما تصـــبغه علينا، وإنّما شـــاءت ببث عراقيل ومصدّات في وجه كلٍ منّا، لينال حصـته ربما بالتسـاوي وربما دون عدل.

فأمي أصـابتها حمّى شديدة أقعدتها بالفراش أسابيع دون حراك، وتوقعنا وفاتها بين لحظة وأخرى، لكن ولله الحمد مدّ الله لها في عمرها ونفضت عنها غبار المرض وفراش التعب لتعود بيننا من جديد، ولكن ما عشـناه مـا بين غفوتهـا وصـــــحوتهـا يوازي عمرنـا كلـه، من خوف وقلق على مسـتقبلٍ فارغ بلا داعم وبلا حضـن دافئ وبلا موجه، وحاضـر مشـتت ومؤلم موحش.

أمّا سارة فازدادت عزلتها وصنعت لنفسها قوقعة دخلتها وامتنعت عن الخروج منها، فلا رغبت في مراجعة طبيب نفسي ولا رؤية ممثّل للدين، ورفضت رفضاً قاطعاً التواصل مع أي أحد حتى نحن عائلتها الصغيرة، وحاولت الانتحار أكثر من مرة، إلا أنّها لم تكن بالشجاعة لتنفذ طريقة الانتحار لنهايتها، فكانت إنْ تناولت حبوب الأدوية لم تقم ببلعها كاملة، فتستفرغ منها الكثير، وإنْ أمسكت سكينة تريد أن تشق طريقاً في معصمها لم تستطع سوى مس يدها مساً خفيفاً، وهكذا أمضت حياتها بين محاولة انتحار وبين إحضار طبيبٍ لها، إلى أنّ أمنّت لها إحدى قريباتنا عملًا، كمساعدة طبيب أسنان في منطقة قريبة لمنزلنا وحثتها بذلك على التفاؤل والتمسك بخيط أملٍ رفيع يمكنه تأمين طوق نجاتها من هذه الوحدة التي أغرقتها.

بينما فرح ثقلت مشاعر النقص لديها حتى طفحت بميزان المنطق لديها، فباتت متلهفة لتعجب شابٍ بها ما مهما كان وضعه ومهما كان عمره ومذهبه ومستواه التعليمي والاقتصادي، لدرجة أنّ أي نظرة من أي شاب تراه في الطريق تعدّها بمثابة رغبة بها، وإن كانت نظرة عارضة محجوبة لم يقصد بها شخصها، وانّما قصد بها رؤية الطريق وما شابه، وما زاد من حالتها هو زواج جميع صديقاتها دون استثناء، فأصبحت لا يُرثى لها من الكآبة والقلق، إلى أن تقدّم لخطبتها شاب يعمل آذن في مكتبة ومتزوج ولديه طفلين، وفقير، ولكنّها رغم ذلك وافقت فوراً أن تكون الزوجة الثانية، وأن تفتح له منزلاً من مرتبها، وأن تصرف عليه وعلى أسرته الأولى وطفليه مقابل فقط أن يتكرّم عليها ويتزوج بها ويحولها كما يقول العوام من الناس لدينا " من فتاة لمرأة في لمح البصر" أي فقط الناحية الجنسية كما هو معتادٌ من

عائلتنا، ورغم اعتراضـــات والدتي وأخوتي، إلّا أنّها لم تأبى ترك هذه الفرصــة الذهبية كما سـمتها، وربما عدّتها الفرصــة الأخيرة لها، وبين صــد ورد وافقت على حل وســط بينها وبين أمي وأخوتي، فأنا لم أقف إلى جانبها ولم أعارضـها، كنتُ أظنُ أنّ هذه حياتها الخاصـة وهي حرة فيما تفعله، وبهذا وافقت على خطبة فقط لتتعرف عليه بشـــكلٍ أكبر أو بمعنى تعتاد عليه.

وفي فترة الخطبة يظهر كل طرف أفضـــل ما لديه، من حب وعشـــق وأخلاق حســنة ووجه بشــوش وغيرها، وتبرز الهدايا بمناســبة وبدون مناســـبة، من ورد ودببة للأطفال وغيرها، لكن هذه الهدايا لم تكن من خطيبها وانّما من زوجته وطفليه، فكانت تكثر بالمجيء إلينا يتبعها الطفلين متوددين لفرح ومدعين الحب والوئام، إلى أن اقتنعت أختي بأهمية هذا الزواج والارتباط للجميع، وهنا توترت علاقتها بوالدتي وســـارة، التي كانت تقف لها كحاجز مرور حينما ترغب بالخروج مع خطيبها، أو ترمي لها بملابســـها خارج المنزل، أو تكســـر لها الهدايا، المهم أن تعكر عليها ســـعادتها، وبالطبع تصـــرفها ينبع من غيرتها الشـــديدة من فرح، فكيف وهي فتاة بمثل جمالها لم يتم خطبتها بينما خطبت فتاة تقل عنها جمالاً وحسـناً، وصـار منزلنا أشـبه بالجحيم، إلى أن جاء ذلك اليوم.

كانت أختي تطبع في مكتبة ما (وهي المكتبة نفســـها)التي يعمل بها خطيبها ومن حســـن حظ فرح أنّه لم يكن يعمل هناك ذاك اليوم، ومع العلم أنّ فرح لا تعلم أنّ هذه المكتبة هي نفســـها باب رزق(للخطيب) بعض الأوراق الخاصــة بمحاضــرات الحقوق، فسـمعت من كان يعمل فيها يتحدثون عنها ويقولون:

صاحب المكتبة: "أين جهاد (وهو اسم خطيب فرح)."
العامل س: "لا أعلم كان عليه أن يحضر اليوم".
صـــاحب المكتبة: "منذ أن خطب الفتاة لم يعد يأتي، أخبره أنني سأفصله من عمله إن استمر في اهماله".
العامل س: "وماذا يفعل أطفاله حينها كيف سيأكلون".
صـاحب المكتبة: "لم يعد جهاد بحاجة للعمل الآن، فقد حاول أن يلمح لي أنّ خطيبته الجديدة هي من تصرف عليه وعلى أطفاله، هل تعلم من هي هذه الفتاة المسـكينة، ليتني كنت أعرفها لذهبت إليها ونبهتها منه.
العـامل س: "لقد قـال لي أنّهـا تـدرس في كليـة الحقوق، وأنّهـا تكســـب الكثير من المال وتســـتطيع الاهتمام به وعائلته، إنّه يعتبرها ككنز جحا، ما إن ينفذ مالها حتى يرميها ويبحث عن أخرى ، كما يفعل كل مرة."
صـــاحب المكتبة ": لولا وصـية والده لي بالاعتناء به وبعائلته لكنتُ صـرفته منذ فترة من هذا العمل، إنّه شـابٌ وضـيع ودون أخلاق، كيف يضحك على بنات الناس."

العامل س: "المشـــكلة في البنات وليســـت فيه، لا أعلم كيف يوافقون على الارتباط به رغم أنّه متزوج ولديه طفلين".

ولم تنتهي محادثتهما لكنّ فرح انصـرفت مسـرعة مهملةً الأوراق التي جاءت بها لطباعتها، ورغم نداءات صاحب المكتبة والعامل س إليها إلّا أنّها لم ترد وتابعت سـيرها للمنزل وهي في قمة تعاسـتها وخيبتها، فقد فهمت أن جهاد يمتهن مهنة أخرى غير البيع في المكتبة، مهنة التجارة بالفتيات والتودد إليهن ليقعن فريســـة نظراته وكلامه المعســـول، وقد كانت هذه الصـــدمة كفيلة لتعيد أختي لرشـــدها وتخلع محبســـها (خاتم الخطبة) وترميه في وجه جهاد معلنةً له رفضـــها الشـــديد لحقارته ودناءته، ومنذ تلك اللحظة والدموع لا تفارقها.

ولم يكن سـامي بمنأى عن عوائق الحياة، بل كانت حصـته الأكبر منها، فقد بلغ التاسـعة عشـرة من عمره، ولم تظهر عليه علامات البلوغ، ممّا دلّ على وجود مشاكلٍ جنسية لديه، وربما هذا يعود لما كنّا نلعبه سابقاً مع ســـامي من ألعاب ذات مضـــامين جنســـية، جعلت فتحته الخلفية متوسـعة، وجعلتع الذكري هشـاً صـغيراً بطيئاً في النمو، فمقارنة حجمه لحجم عضو رجل آخر كما أوضح الطبيب الذي فحصه أنّه يبدو كالطفل الصـــغير أمام والده، وقد أكدّ الطبيب أنّه لا أمل في شـــفائه وبالتالي لا أمل في زواجـه، وكـأنّـه تعرّض لاغتصـــــاب أفقده قدرتـه الذكوريـة ورجولته كما يقول العوام.

وكان هذا الخبر كالفاجعة عليه وعلينا جميعاً، لم تعلم أمي ولا أخوتي السبب، حين ذكر الطبيب أنّ أخي قد تعرّض لاغتصاب وهو طفل، إلّا أنّها أكدّت له أنّ أخي لم يتعرّض للأذى، كذلك سامي أيدّ ما ذكرته أمي للطبيب، ولكنني كنتُ واثقة من أنّ تربيتنا الجنسية الخاطئة وتشوهنا جنسياً وحديث عائلتنا الجنسي كله السبب في ما أصاب سامي، وبهذا عاش أخي صراعاً مع نفسه ومع المجتمع، وشعر بأنّ العالم كله يعلم سره ومشكلته ووضعه وهذا زاد من حدة طباعه وقسوته وعنفه ليتحوّل تدريجياً لنسخة من والدي في الجبروت والعنف، بل هو نسخة مطوّرة ومحدثة من الكراهية والعدوان، وهذا ما جعل سحابة الهم والغم تتضخم فوق منزلنا لتمطرنا ألماً غزيراً ودماً بدل الدموع، ولم يكن أمامنا سوى الدعاء والابتهال لله عز وجل أن ينجي أخي ممّا حلّ به.

أمّا أنا، بالمقارنة مع سامي، فوضعي أفضل ومشكلاتي أقل خطراً بالتأكيد، تعرّضت للتحرش الجنسي أكثر من مرة من قبل شباب وعجائز، وربما خوفي من أن يلمسني أحدهم جعلني مستهدفة وضعيفة دائماً بنظرهم، أو ربما يشعرون بما يدور في خلدي من قلق حول هذا الموضوع فيسارعون لتأكيده لديّ ، حقيقةً لم أكن أعلم هل أنا حقاً مستهدفة أم أنّ الفتيات جميعهن يحدث لهنّ ما يحدث لي؟

كنتُ ضعيفة وهشة ولم أستطع الدفاع عن نفسي، وفي كل مرة يحدث لي هذا الأمر كنتُ أعزي نفسي بأنّها تجربة ستعلمني كيف أدافع عن نفسي في المرات القادمة، ولكنّني أفشل، وأجبن وأضعف ولا أستطيع قول شيء أو فعل شيء لمن يقوم معي بهذا السلوك المنحرف.

ذات مرة كنت أسير في طريقٍ مزدحم ومليء بالبسطات (وهي عربات جوالـة يبيع عليهـا النـاس مختلف البضـــائع والحـاجيـات من ملابس لتطورات إلى أحذيـة .... للأطعمـة المختلفـة ... إلخ)، وإذ برجل في الأربعين من عمره أشـيب الشـعر ذو نظارات غليظة وعينين مدورتين منتفختين، وفمٍ غليظ، يقترب مني كثيراً ثمّ يـدخـل يـده مـا بين قـدمي ويلمس أعضائي التناسلية، كان سريعاً وقفت مشدوهة حينها، كانت هذه تجربتي الأولى، لم أصـــرخ ولم أتكلم، وانّما تابعت مســـيري دون أن ألتفت إليه ثمّ توقفتُ عند عربة لبيع الأحذية، وإذ به يعود ويلمســـني مجدداً من الخلف لكن بقوة أكبر، خفت وبكيت وركضتُ مسرعة، أتلفتُ حولي خائفة من أعين الناس التي قد رأته يتحرش بي، قلقة من أن يعود للحاق بي ومعاودة الكرّة مرة أخرى.

رغم أنني نحيلة وهزيلة بعض الشيء وأرتدي ملابس فضفاضة وحجاباً يغطي رأســـي وشـــعري، إلّا أنني امتحنتُ كثيراً، وعانيت مراراً من التصـــرفات الشـــاذة والبذيئة التي تبدر عن هؤلاء الرجال الســـوقيين، المنحلين خلقاً وأخلاقاً، فلا همّ لهم ســـوى إيذاء الفتيـات ولمســـهن والامساك بهن أين ما كانوا وكيف ما استطاعوا .

ولم تكن هذه تجربتي الوحيدة، فقد مررتُ بما هو أقسى، ففي يومٍ غائم كنت عائدة من كليتي منهكة فصـــعدت حافلة (باص النقل الداخلي)، وجلسـت على إحدى مقاعدها، وكانت الحافلة ممتلئة لآخرها من شـباب ونساء وأطفال وعجائز، ولم يمضِ وقتٌ قصير على سير الحافلة حتى شـــعرت بشـــيٍ قاسٍ يطرق كتفي بقوة ويحتكُ به، التفتُ فرأيتُ رجلاً عجوزاً.

فعلياً لا يستطيع الوقوف، ذو نظرة بلهاء أو مدعية للبله، ظننته لا يقوى على الوقوف، فطلبتُ منه الجلوس في مكاني فأصـرّ على بقائي جالسـة وشـــدّ على كتفي، وقال لي: ابنتي أنت أحق بالجلوس مني، فاطمأننت إليه، وســرتني كلمة ابنتي منه، لكن بعد قليل شــعرت به يحتك بي من جديد للأعلى وللأسـفل ولليسـار ومن ثمّ لليمين، نظرتُ إليه فكان لعابه يسيل من فمه وعينيه تقدح شرراً، ومن ثم نظرتُ للأسفل، وإذ بعضوه يبرز من تحت بنطاله وكأنّه مثار جنسياً فقد انتصب عضوه بشكلٍ كبير وخرج منه سائلًا بلل بنطاله وبلل كتفي ويدي، تألمت واضطربت لكنني حاولت النظر إليه بقســوة وبجدية قدر المســتطاع، فنجحتُ في إبعاده عني، حيثُ توجه لفريسة أخرى وضحية أخرى من الموجودات في هذه الحافلة لسوء الحظ.

شـــعرتُ ذلك اليوم بقرفٍ شـــديد ورغبة في الإقياء ما إن نزلتُ من الحـافلـة، فعـدّت لاهثـة للمنزل والـدموع تغطي عينـي، ودخلـتُ الحمّـام مسرعة واغتسلت ونظفت نفسـي جيداً لدرجة أنّني قد شـوهتُ كتفي من شدة تنظيفه وفركه مراراً وتكراراً، ثمّ قمتُ بغسل ملابسي وتطهيرها .

وأحياناً كنتُ اتعرّض للقرص من بطني أو صـدري، وأخرى للمس، أو للمسك .... وهكذا.

كثيراً ما حدثت نفســي بكرهي للرجال وعدم رغبتي في الاقتراب منهم مجدداً، لكن ما حدث معي لاحقاً جعلني أكره الجنسـين الرجال والنسـاء وأفقد ثقتي بمن حولي جميعاً، كنتُ أحسب أنّ سارة فقط مريضـة جنسياً ولكن اكتشـفتُ أنّ الجميع مرضــى جنسـياً أو شـاذين جنسـياً، فلم يلبث التحرش أن توسـع ليشـمل نسـاء لنسـاء، وإن كنّا كباراً وعجائز، وما

أدهشـني حقاً هو هذه الشـهوانية الحيوانية للغريزة الجنسـية لدى كليهما من النساء ومن الرجال.

وبهذا لم تكن عائلتي الوحيدة المشـــوهة جنســـياً بل مجتمعي بأســـره منحرف وشـاذ ومشوه جنسياً ونفسياً، همّهم الوحيد هو إشـباع الغريزة والقذف والاغتصاب والتحرش ....

ومن تحرشٍ لآخر اعتدتُ الأمر وأصبح الأمر لديّ سيّان، ففي ظل هذا الوضع لا أسف ولا حزن على شيء.

لكنّ أفكاري وخيالاتي وحتى أحلامي أصبحت ذات مضمون جنسي، أنا التي ترفض هذا الموضـوع وترفض الشـهوة والغريزة بتُ أشـدّ الناس تفكيراً في الجنس، في صحوتي وفي غفوتي وفي نومي.

أحياناً أتصـور نفسـي فتاةً حسـناء ممشـوقة القوام، محبوبة من الجميع، ناجحة بكل شيء، في الطب والأدب والفن والتجارة، يرغب بها الفتيات قبل الفتيان، وأقصـدُ بالرغبة " ممارســة الحب واقامة العلاقة "، كانت قادرة على فعل كل ما تريد دون أن يمنعنها أحد.

كل يوم تلتقي بفتاة جميلة تقلُّ عنها حسـناً، لأنّها هي الأجمل والأفضـل على الإطلاق، وبهذا كانت هذه الفتاة بطلتي لسـلسـة كاملة من الأحلام والتخيلات، ترافقني كـل يوم وكـل ليلـة، حين أصـــلي وحين أتنـاول طعامي، حين أستحم، وحين أبدل ملابسي، حين أنام وحين يقظتي.

تدور أحداث هذه السلسلة التي بطلتها هذه الحسناء حول الشهوة والرغبة والقسوة والعنف، ففي ليلة حلمتُ بها بأنّها تسكنُ منزلًا خاصاً بها لا يشاركها به أحد وأنّ والدتها توفت وهي في الرابعة من عمرها ووالدها قد سافر لبلاد أجنبية ليتابع أعماله الكثيرة باعتبار أنّه طبيب مشهور، وهذا ما كان يدفعه للافتراق عن محبوبته الصغيرة وطفلته المدللة " ليدي" وكان هذا اسم بطلتي على الدوام.

ليدي كانت فتاة عبقرية استطاعت النجاح في العديد من العلوم وحصلت على شهادات مختلفة في مجالات متنوعة، وجابت أنحاء البلاد إمّا برفقة والدها أو برفقة أصدقائها أو معجبيها، ونالت الكثير من الجوائز، إمّا لاختراع طبي، أو لصورة مبدعة، أو قصيدة شعرية، ....إلخ.

وبعد هذا النجاح وهذه الشهرة، عادت لبلادها، واستقرت بمنزلٍ كبير واسع ، وبدأت تنشر الحب أينما توجهت ولدى كل من تراه عينها، وهذا الحب من وجهة نظرها كان يعني الجنس.

بطلتي تلتقي كل يوم بفتاة مختلفة عن الأخرى، ولكن يجمع بينهن أنهنّ حسناوات، وتبدأ الأحداث منذ اللقاء الأول بينهن.

ولم أقف عند موضوع الخيالات، فقد تفاقمت مشكلتي بشكلٍ أسوأ وأصبحت مدمنة على المواقع الإباحية، لدرجة أنّني بتُّ مهوسة بالجنس ورؤية المشاهد المثيرة جنسياً وخاصة بين الفتيات، فقد جذبني الجنس بين الفتيات مقارنة بالجنس ما بين الجنسين، كذلك شدني الجنس ما بين الذكور، وربما لفت انتباهي كل ما هو شاذ، فبات يومي بنهاره وليله أقضيه على مشاهدة هذه المشاهد الإباحية سواء من حيث عشق الكبار

للفتيات الصـغار، أو عشـق الحيوانات، أو عشـق الأطفال من الجنسـين وغيره.

وفي اليوم الذي لا أمارس فيه عادتي إمّا بسـبب خجلي ممّن هم حولي، أو عدم توافر الانترنت، تنتابني أعراض المدمن للمخدرات نفسـها، من توتر واضـطراب، وفقدان للسـيطرة على الجسـد، ورغبة في هرش الجسـد بأكمله، وعدوان على الذات وعلى الآخرين، وغيرها، وهذا ما يجعلني في حالة يُرثى لها تماماً.

واضـطربت حياتي، فلا قدرة على النوم ولا قدرة على تناول الطعام، وفقدتُ الشـهية للطعام لدرجة الهزال، ممّا أثار خوف والدتي وظنت أنّني أعاني مرضـاً خطيراً، فعيوني صـفراء ووجهي شـاحب ولوني ازداد صـُفرة، مع شـعور بالتعب والخمول طيلة اليوم، وهذا ما دفع بوالدتي بجرّي رغماً عني للطبيب، الذي أخبرنا بأنني لا أشـكو من شـيء، ولم تطمئن والدتي لما قاله، ولهذا بات ذهابنا للطبيب عادتنا اليومية، فلم ندع طبيب داخلي أو هضمي أو عظمي أو دكتور للأمراض السـرطانية الخطيرة ... وغيرهم، إلّا وذهبنا لعيادته وأجرينا فحصـاً كاملاً وتحاليل وصور شعاعية ورنين مغناطيسي، ورغم هذا لم يعرف أحد منهم سبب هزالي وشحوبي وضعفي، وكأنّني شمعة أذوب كل يوم.

إلى أن ذهبنا لطبيب عام في منطقة ريفية نائية، يسـمّوه طبيب الفقراء، حيثُ يعالج الفقراء بمبلغٍ زهيدٍ من المال، وبعد أن أجرى فحصـاً كاملًا لي، اسـتنتج أنّني بحاجة لطبيب نفسـي وأنّني على الأغلب أعاني من صـراعٍ داخلي، وقد أكدّ لوالدتي أهمية الاسـراع في رؤية الطبيب قبل تفاقم الحالة بشكلٍ أكبر.

وبعد الكثير من المشـاحنات بيني وبين والدتي بسـبب رفضـي للذهاب لطبيب نفسـي، كي لا يقال عني بين أفراد الأسـرة أنني مجنونة، وهذه نظرة المجتمع بأسـره للطبيب النفسـي في مجتمعنا، فإلى الآن لم تتغير هذه النظرة.

في النهاية قررتُ مجاراتها ومسـايرتها بعد ما عانيت من ألم وانهاك وفقدان خيوط الحياة من بين يدي، حيثُ لم أعد أسـتطيع متابعة حياتي بشكلٍ سوي، وشعرتُ بحاجة ملحة لشخصٍ ينقذني ممّا ألم بي.

وبدأتُ جلسات العلاج مع طبيبي النفسي، بمقدار جلسة أسبوعياً، لمدة ستة أشهر، ثمّ أشار إلي بأهمية حضوري جلسات جماعية، حيثُ أجتمع خلالها مع مجموعة أخرى من الأفراد المحطمين نفسـياً وجسـدياً مثلي وربما هم أسوأ مني، كلٌ منّا يخبر الآخر بمحنته ومعاناته وعلاقاته مع أسرته والآخرين من حوله، ثمّ مع الوقت بدأنا نخبر بعضنا بما أنجزناه خلال الأسبوع بأكمله أو ما مرّرنا به من نكوص في فترة العلاج.

سـاعدتني هذه الجلسـات كثيراً في شـعوري بأهمية الحياة وبضـرورة الجنس فقط كإحدى حاجاتنا الأسـاسـية، دون إعطائه أهمية كبرى في حياتنا، فهناك ما هو أهم منه، فالعمل وتحقيق الذات ومسـاعدة الآخرين ذو أهمية أكبرى وذو قيمة أكبرى، تشـعرنا بأهمية وجودنا وتعزز انتمائنا للجنس البشري. فلم نخلق نحن البشر لنمارس الجنس بشهوانية وعنف كالحيوانات، وانّما خلقنا ليكون لنا رسـالة نفيد بها من حولنا وتترك لنا أثراً طيباً يذكره الباقون بعد رحيلنا لهذا العالم.

وبهذا تغيرت نظرتي للأمور، وأول ما قمتُ به هو الصفح والمسامحة عن نفسي وعن أسرتي، عن والديّ وعن عائلتهما، عن أخوتي وعن العالم بأسره، لأبدأ من جديد حياة خالية من الحقد ومن الضغائن ومن التشوهات النفسية والجنسية.

ولأودع مرحلة المراهقة، وأبدأ في مرحلة جديدة بشكلٍ جديد ومضمونٍ جديد.

أمومة مؤقتة.....

يعرف الطفل أمه من ابتسامتها..... فرجيل

"أعطيتها كل حبي. علمتها أن تمشـــي، أن تتكلم، أن تضـــحك. ثم في يوم من الأيام، أخذوها. وكأنها حلم اخترعته لأبقى حية. لكن الفراشـة التي ربّيتها في راحتيّ حطّت أخيراً، ليس في حديقتي، بل في حديقة أخرى. وأنا هنا، أتذكر رفة أجنحتها على جلدي."من رواية "الغرفة" لإيما دونوغيو

"لقد اسـتعارت جسـدي، لكنها لم تسـتعر قلبي. القلب أعطى عن طيب خاطر. وعندما أخذوا الطفل، أخذوا معهم عضـــواً من أعضـــائي. كان ســـاري المفعول: أمومـة مؤقتـة. لكن النـدب دائم." من روايـة "الأم البديلة" لجو جو مويس

"الأمهات لا يُسـتأجرن. الأمهات لا يُسـتردّن. لكنني فعلت. وقعت على عقد يخبرني أنني لســـت أمـا، لكن لا أحد أخبر قلبي بذلك. والآن، الغرفة فارغة، والعقد منتهٍ، لكن الصـــمت الذي تركوه هو الضـــجيج الأقسى." من رواية "كفى بي جنوناً" لـ أجاثا كريستي

أمينة: أمي ... هل فرح ستكون بخير ... أتلهف لرؤية البيبي.

أمي: بإذن الله

أخرجوا أختي فرح من غرفة العمليات بعد أن أجروا لها عملية قيصرية لولادتها، على اعتبار أنّ حياتها هي والجنين كانت في خطر، فالمولودة كانت طفلة صغيرة الحجم كثيراً ولكنّها لذيذة، حملتها والتجأت لله أدعوه أن يرزقني بزوجٍ صالح وطفلة جميلة مثلها.

أسموها جوري بعد نقاش وجدال مطوّل ما بين أمها وأبيها، فالأم كانت ترغب بتسميتها جودي، والأب يرغب في تسميتها جوليا، لذا قرروا تسميتها اسماً يجمع ما بين الاسمين، وكانت اسماً على مسمى، بهية الطلعة، شديدة الجمال، سكنت قلبي منذ رؤيتها لأول مرة ومنذ إمساكي بيدها الرقيقة الصغيرة، لم أنم ليلة ولادتها وأنا أراقبها كيف تتحرك وكيف تتنفس، أراقب عينيها وفمها ويديها.

إنّ الأطفال لنعمة من المولى عز وجل لا يقدرها إلا من يفقدها.

والد جوري " جلال" كان مستشاراً قانونياً ذو مرتبة رفيعة ومكانة عالية في الدولة، تعرّف على أختي أثناء مناقشتها لرسالة الماجستير في الحقوق، وقد كان أحد أصدقاء أعضاء اللجنة العلمية لرسالتها، أعجب بشخصيتها والطيبة التي على محياها، وثقافتها وطريقتها المؤدبة المتوازنة في حوار أساتذتها والرد على أسئلتهم، ومنذ تلك اللحظة وهو يراسلها ويهاتفها إلى أن تمّ الزواج والارتباط بينهما.

حين يقولون ما بعد الصـــبر إلّا الفرج، فتأكدّ أنّ هذا الكلام صـــحيح، فبالرغم من يأسـي أختي فرح وفقدانها الأمل في الارتباط إلّا أنّ الله عز وجل قد منّ عليها بزوج ذو شـــخصـــية فاتنة و رائعة، لبق الحديث، وسيم، وذو حنان كبير، وثراء فاحش، كان يكبرها بخمس عشرة سنة، ومع هذا حين تراه ، تتأكد انّ العمر قد نسيه ولم يترك أثراً عليه.

وكانت جوري ثمرة هذا الارتباط، وحبيبة العائلة، ومدللة الجميع، فهي الحفيدة الأولى على عائلتنا الصغيرة.

فأختي سـارة التي تكبرني بسـت سـنوات لم تتزوج، ولم يعد أحد يتقدم لخطبتها، ربما من شـدة رفضـها للارتباط اسـتجاب لها القدر، ولم يعد أحد يفكر فيها كزوجة.

أمّا أخي سامي والذي يصغرني بسنتين فمنذ أن سافر لم نعلم عنه شيئاً، فقد عزم السـفر فجأة دون سـابق إنذار لبلد أجنبي للهروب من واقعه وعالمه، ولم نعلم إلا قبل يومٍ واحد فقط من سفره، أخبرنا أنّه سيسافر غداً ، وأنه لن يعود، وسيتواصل معنا دائماً ويخبرنا عن أحواله، ومنذ تلك اللحظة ولم نسمع عنه شيئاً.

وبهذا أصبحت جوري فرحة عائلتنا بعد طول عذاب، وخاصة بالنسبة لي، فقد شـعرتُ معها بأحاسـيسٍ مختلفة غريبة عني، أشـعر بها للمرة الأولى، من فرح لحب لدغدغة مشـاعر لسـعادة غامرة ورضـا وأمل وتفاؤل بالمسـتقبل ورغبة في العيش وتحقيق الذات والصـبر ... وغيرها.

كنتُ قد تخرجت من الجامعة وحصلتُ على المرتبة الأولى على كليتي في الفلسفة، وبدأت أحضّر للماجستير ، وبهذا أصبح لديّ الكثير من وقت الفراغ، أقضيه مع جوري.

فأختي فرح عادت لمباشرة عملها بعد إجازة الأمومة التي مدتها ثلاثة أشهر فقط في مجتمعنا، وبهذا كان عليها ترك جوري الصغيرة في أمانتي ريثما تعود من عملها.

وباتت جوري هي شغلي الشاغل، أطعمها وأسقيها الحليب، وأنظفها وأغيّر لها حفاضتها، وملابسها إن اتسخت، وأهزها وأغني لها أجمل الأغاني لتنام، وألاعبها، وأقوم بتمارين رياضية لها وأسمعها الموسيقى، وأقرأ الكثير من القصص المسلية للأطفال وأدعها تشاهد الصور وتلمسها بيديها الناعمتين وهي تجلس في حضني.

فمنذ أن عقدتُ العزم على بدأ حياة جديدة وتغيير نمط حياتي، لم يعد ما يشغلني سوى صلاتي وحفظي لكتاب الله والدعاء والالتزام بملابسي والاهتمام بالبرامج التربوية والنفسية وقضايا المرأة والطفل، وكنتُ أعمل جزئياً في جمعية لحقوق الطفل، وأحقق ربحاً متواضعاً ، فلم يعد يهمني المال مقابل الرسالة التي عليّ تأديتها في الحياة.

أمّا جوري فكانت وظيفتي الكاملة منذ الصباح للمساء، فمنذ عودة فرح للعمل لم تعد تهتم بجوري كالسابق، فشدتها مغريات الحياة وشهواتها، فمن العمل إلى الاستمتاع بصحبة الأصدقاء، إلى السهر مع الزوج، والذهاب في النزهات، وبهذا تخلت أختي تماماً عن تربية جوري والاعتناء بها، فلا تراها إلا وهي نائمة، حينما أحملها وأضعها في سريرها بمنزل أختي.

وفي الصـــباح تحملها أختي إليّ وهي نائمة، وهذا جعل العلاقة بيني وبين جوري تكبر وتنمو كما تنمو هي أمام ناظري، شبراً بشبر، فزاد حبي لها، وأزهرت في قلبي عشقاً لا ينضب، ومرّت الشهور والسنين لتصبح جوري ابنتي التي لم ألدها، أمومتي التي لم تتحقق.

فارتبطت بجوري ارتباطاً روحياً لا دموياً ولا وراثياً، وتعلقتُ بها وتعلقت بي، وكانت تناديني أمي، ومهما حاولت لا تستطيع أن تناديني خالتي، فكنتُ بنظرها الأم التي لم تحملها في رحمها، الأم التي لم ترضعها، لكنني كنتُ الأم التي أحبتها ورعتها، واهتمت بها في مرضها وفي عافيتها، شاركتها أفراحها وأحزانها، ألمها وسعادتها.

ترعرعت ما بين أحضاني، كانت أول كلمة تنطقها وأنا أمامها أحفزها وأشجعها، كنتُ إلى جانبها وهي تحبو لأول مرة، وهي تقف وهي تمشي، تمثّلت حركاتي وتصرفاتي وكلماتي ، وباتت نسخة طبق الأصل عني.

كبرت على يديَّ، ولم تكن تشعر بالأمان إلا وهي بحجري أهدهد لها وأطبطب عليها.

كانت فرحة عمري وأمل حياتي ونور الأمل الذي أصبح به وأمسي عليه، نور عيني التي أرى بهما، باتت كل حياتي بكل ما للكلمة من معنى، وأحاسيسي كلها، وشعرتُ معها بأمومة كاملة، وتحركت مشاعري وغرائزي، وبتُّ أشعر بأنوثتي وبرحمي وبهرموناتي الأنثوية وبغرائزي.

وهنا أستشهد بقول الدكتور عائض القرني في الأم:

أكبر وأنا عند أمي صـغير، وأشـيب وأنا لديها طفل، هي الوحيدة التي نزفت من أجلي دموعها ودمها، نسـيني الناس إلا أمي، عقَّني الكل إلا أمي، تغيَّرعليَّ العالم إلا أمي، الله يا أمي: كم عفتِ المنام يوم غبتُ !وكم ودَّعتِ الرُّقاد يوم مرضـتُ ! الله يا أمي : إذا خرجتُ من البيت وقفتِ تودعينني بقلب يقطر أسى، الله يا أمي: حملتِني بين الضلوع أيام الآلام والأوجاع، ووضعتِني مع آهاتك وزفراتك، وضممتِني بقبلاتك وبسـماتك، الله يا أمي: لا تنامين أبداً حتى يزور النوم جفني، ولا ترتاحين أبداً حتى يحل السرور علي، إذا ابتسمتُ ضحكتِ ولا تدرين ما السـبب، واذا تكدّرتُ بكيتِ ولا تعلمين ما الخبر، تعذرينني قبل أن أخطئ، وتعفين عني قبل أن أتوب، وتسـامحينني قبل أن أعتذر، الله يا أمي: من مدحني صدقتِه ولو جعلني إمام الأنام وبدر التمام، ومن ذمني كذبتِه ولو شـهد له العدول وزكَّاه الثقات، أبداً أنتِ الوحيدة المشـغولة بأمري، وأنتِ الفريدة المهمومة بي، الله يا أمي: أنا قضـيّتك الكبرى، وقصتكِ الجميلة، وأمنيتك العذبة، تُحسنين إليّ وتعتذرين من التقصير، وتذوبين عليّ شوقاً وتريدين المزيد.

فليست الأم التي حملت ووضعت، بل الأم التي ربت وسهرت وبكت وفرحت وتعبت وتألمت، بل الأم التي تستشعر حزن ابنها وفرحه، بل الأم التي تضحك مع طفلها رغم حزنها، تلعب معه رغم تعبها، تسهر على راحته رغم مرضها، وهكذا كنتُ لجوري وكانت هي بالنسبة لي النعمة المقدسة والهبة المعظمة والفرحة الكبرى والسعادة الغامرة.

لكن دوام الحال من المحال، ولم تكف يد الحياة عن ضـــربي وايلامي، لتنهال علي بأقســـى عقوبة يمكن أن ينالها المرء، لتحرمني من أمومة مؤقتة، ولتعاقبني على ما مضـــى، وتحيل نهاري لليل حالك الســـواد، وتمحي بممحاتها جميع ألوان الحياة بنظري، فتصـــبغها بلون أبيض شفاف.

حيثُ دبّت الغيرة في قلب أختي فرح، غيرة على زوجها جلال مني، بعد أن وجدت ما بيننا من انسجام بسبب غيابها المتكرر، كان انسجاماً مضمونه التفاهم والاحترام والمودة الأخوية، كان يقدرّ اهتمامي بابنته، وهذا ما دفعها لتقطع الصـــلة وتزيل الرابط الذي قد جمعنا بداية وهو جوري.

فقررت تغيير مكان عملها والانتقال للعمل في محافظةٍ أخرى، وأصـــرّت على جلال ليتخذ لها مســكناً في تلك المحافظة، وهكذا باتت جوري بعيدة عني وعن ناظري.

كان الأمر بمثابة تجريد أرضٍ من خضرتها وتركها يابسة محطمة غير نافعة، لا تصلح لا للزراعة ولا للسياحة.

أرضٌ بور لا يهتم بها أحد ولا يلتفت إليها أحد، وهذا ما أمســـيتُ عليه بعد فراقي لطفلتي الصغيرة.

كان يوم الفراق وســـفر عائلة فرح يوماً حزيناً، كانت تمســـكُ بثوبي وترفض الذهاب مع والديها، وهي تصـــرخ وتبكي وتشـــدّني وتناجيني لأسمح لها بالبقاء معي، ظنّاً منها أنّي من أريد إبعادها عني.

في تلك الأثناء نزف قلبي قبل عيني، وعانقتها عناقاً مطولاً، وأنا أهدهد لها كعادتي حينما تكون حزينة، وأطمئنها أنّني ســـآتي لزيارتها دائماً وأنّني لن أفارقها أبداً، وأنّ الحياة تضـــطرنا لاتخاذ قرارات تبدو في بادئ الأمر صعبة وقاسية لتكشف لنا أهميتها.

لكنّها لم تهدأ ولم تطمئن، كما كنتُ أنا ملتاعة عليها، أتمنى لو أنّني أســتطيع الإبقاء على هذا الحضــن الدافئ، فأنا بحاجته أكثر من جوري نفسها، فكم من حزنٍ مررّت به ولم أجد من يواسيني ويهدأني ويعانقني، لم أجد من يضــمني بقوة لصــدره، ويعتصــرني بحبه وحنانه، ويبقيني على حجره.

شـــممّت رائحتها للمرة الأخيرة، فلم أعد أراها بعد ذلك اليوم أبداً، وكأنّني ارتكبتُ جرماً أعاقب عليه بأقسى من الإعدام.

وهكذا باتت أيامي كلها متشــابهة ، فلا شــروق ولا غروب، لا نوم ولا صـحو، لا كلمة أمي تهز مشـاعري، ولا صـوت ضـحكة جوري التي لم تفارق أذني، لا شيء.

وعدتُ لشـــقائي، فاعتزلتُ الحياة بكل مغرياتها، لا طعام ولا شـــراب، حتى كدت أهلك.

إلى أن رأيتها، كنتُ أسـير في الشــارع بلا هدف وبلا سـبب، أفكر في جوري، وأشـعر أنّها معي تمسـك بيدي وتطلب منّي اصـطحابها للحديقة العامة، أو تطلب مني شــراء شــوكولا تحبها، أو تركض أمامي وتطلب مني اللحاق بها، فأسـمع ضـحكتها وأرى وجهها في مخيلتي يشـع نوراً

وجمال، فأبكي وتحرقني دموعي فأدعها تجري على وجهي، وأعدو معها مسرعة متألمة، أرغب في الصراخ لكن يمنعني الخوف من نظرات الآخرين، أرغب في العويل لكن يمنعني الخجل.....

وما بين ضحكٍ على ذاكرة وبكاءٍ على حاضر، رأيتها أمامي شامخة مشرقة مضيئة، حركت مشاعري، وكأنّها شعرت بي أناديها فالتفتت لي، وابتسمت. كانت تمسك بحقيبتها وتريد صعود الحافلة، كان شعرها يتطاير بفعل الهواء، واذ بها تدير وجهها لتلتقي عيني بعينها وفكري بفكرها، حدثت نفسي: يا إلهي ... إنّها هي،... لا شكّ في ذلك، ففركتُ عيني وركضت باتجاهها لكنني لم ألحق بها إذ أنّها تبخرت ولم أعد أراها.

أخذت أسائل نفسي: هل ما رأيته حقيقة.... أم أنّ خيالي هو من صوّر لي هذا، هل عيني قد تشوهتا بفعل الدموع فلم تبصرا بشكلٍ جيد... أم أنّ عقلي قد مسّه الجنون.

إنّها بطلتي " ليدي " صاحبتي في نومي وصحوي، صورتي التي أتمناها.

عدّتُ للمنزل كالمجنونة، حدثتُ والدتي وأختي عمّا شاهدته، فاستهزئت مني سارة كعادتها، أمّا أمي فقد بدا الانزعاج عليها، ولم ترغب في متابعة الحديث، انسحبت بهدوء وذهبت لتنام.

كانت لقطة غريبة، لكنّها أعطتني أملًا للحياة، لأنني وجدّتُ ضالتي ووجعي، فرحي وحزني، فكثيراً ما شعرتُ بأنني أعيش حياتين بجسدين متشابهين، كل جسد يبثُ للآخر فرحه وحزنه، رضاه وسخطه، ألمه وعذابه، نجاحه وفشله.

وكثيراً ما رأيت أماكن لا تخصـــني، أماكن غريبة غير مألوفة أشـــعر بأنني أعرفها جيداً، ووجوه أعرفها ولا أعرفها، ومواقف مررتُ بها ولكنني في الحقيقة لم أختبرها.

كنتُ أشـــعر بأنني مجزأة بروحين وبشـــخصـــيتين، لكل منهما أفكارها وأماكنها ومواقفها، وذكرياتها، وما شـــعوري بالألم دون مرض، وبالحزن دون ســـبب، وبالانفعال دون مبرر، وما عجز الأطباء عن معرفة سببه إلّا ما رأيته وما أكدّه لي اليوم، أنّ لي أختاً توأم، تشبهني في المضمون، في المشاعر والأحاسيس، أفرح لفرحها وأحزن لحزنها، توأماً غير حقيقي.

رؤيتي لها في الطريق أثارت ذكرى منســـية لديَّ وأنا طفلة، أثارت حديثاً سرياً كان يقال بين والديّ في الخفاء، أذكر أنني كنتُ في الخامسة من عمري حين سمعتهما يتحدثان.

وهذا ما أثار شـكوكي وزاد من حقيقة ما رأيته اليوم، أيقظتُ والدتي وبتُ أناجيها أن تقول لي الحقيقة، وأعدتُ لها حديثاً قد قالته منذ سنين، ورغبتها في ضياعي مقابل بقاء أمنية معها، أجل لقد تذكرتُ اســم توأمي، إنّها أمنية، وهنا انهارت والدتي وبدأت بالبكاء والنياح وكأنّها تلقت للتو خبر وفاة عزيزٍ عليها، روت لي القصــة كاملة كما ذكرتها لكم سابقاً.

أخذت أؤكد لها أنّ أمنية ما زالت على قيد الحياة وأنني قد أريتها ، وأنّهاك رفيقتي في أحلامي وصاحبة خيالاتي، وصديقة مغامراتي، وكنتُ كلمّا وصـفتها لأمي تيّقنت من أنّها أمنية، بجمالها وسـحرها، فملامحها مميزة ولا يمكن للعين أن تخطؤها.

وبـالرغم من أنّهـا كـانـت الأجمـل، إلا أننّي بـتّ أرغـب في رؤيتهـا مجدداً في ضـــمها، في إخبارها بكل ما جرى لي، في لمســـها، في الارتماء بحضنها.

كم تمنيتُ رؤيتها لأسرّ لها بكل أسراري، وبكل مخاوفي، لأؤكد لها أنّها كانت معي دائماً ولم تفارقني لحظة.

وما التفاتها لي إلا دليلاً على أنّها عرفتني لكنّها فضـــلت الابتعاد عنّي، خوفاً عليّ ممّا هو أشد.

وبدأتّ بالبحث عنها، منطلقة من المكان الذي أبصـرتها به، ممسـكةً بصورة رسمتها لها في مخيلتي، حاولت قدر الإمكان تصويرها كما هي، وان فاتتني الدقة والجودة، وكنتُ أسأل عابري الطريق عنها، فيحسبونني مجنونة أو ممسوسة بجن أو سحر.

لم يهتم أحد بي أو بالصـــورة التي أشـــدّ عليها بيدي، وباتت توأمي حديثي في جميع أوقاتي مع أهلي وأقربائي وجميع معارفي.

ولم أشـك للحظة أنني سـألقاها قريباً، وسـيكون هذا اليوم الذي ألملم فيه شتات نفسي الضائعة المتبعثرة.

إنّها أمنية، وهنا انهارت والدتي وبدأت بالبكاء والنياح وكأنّها تلقت للتو خبر وفاة عزيزٍ عليها، روت لي القصة كاملة كما ذكرتها لكم سابقاً.

أخذت أؤكد لها أنّ أمنية ما زالت على قيد الحياة وأنني قد أريتها ، وأنّها

كانت رفيقتي في أحلامي وصـــاحبة خيالاتي، وصـــديقة مغام ارتي، وكنتُ كلمّا وصـــفتها لأمي تيّقنت من أنّها أمنية، بجمالها وســـحرها، فملامحها مميزة ولا يمكن للعين أن تخطأها.

وبالرغم من أنّها كانت الأجمل، إلا أنني بتّ أرغب في رؤيتها مجدداً في ضـــمها، في إخبارها بكل ما جرى لي، في لمســـها، في الارتماء بحضنها.

كم تمنيتُ رؤيتها لأســـرّ لها بكل أس اررري، وبكل مخاوفي، لأؤكد لها أنّها كانت معي دائماً ولم تفارقني لحظة.

وما التفاتها لي إلا دليلًا على أنّها عرفتني لكنّها فضـــلت الابتعاد عنّي، خوفاً عليّ ممّا هو أشد.

وبدأتّ بالبحث عنها، منطلقة من المكان الذي أبصـــرتها به، ممســـكةً بصورة

رسمتها لها، حاولت قدر الإمكان تصويرها كما هي، وان فاتتني الدقة

والجودة، كنتُ أســـأل عابري الطريق عنها، فيحســـبونني مجنونة أو ممسوسة بجن أو سحر.

لم يهتم أحد بي أو بالصورة التي أشدّ عليها بيدي، وباتت توأمي حديثي في جميع أوقاتي مع أهلي وأقربائي وجميع معارفي.

ولم أشك للحظة أنني سألقاها قريباً، وسيكون هذا اليوم الذي ألملم فيه شتات نفسي الضائعة المتبعثرة.

يوماً كان مشهوداً

في المدرسة يعلمونك الدرس ثم يختبرونك، أما الحياة فتختبرك ثم تعلمك الدرس.

"الوطن ليس عنواناً. الوطن هو حكاية تبدأ ولا تنتهي، تُروى بلهجة الطفولة، وتُنسى بلغة المنفى. تهجّرت من بيتي فحملت بيوتاً في عينيّ، كل منها يبكي على الذي قبله." (من رواية "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني)

"الدّمار ليس عندما تنهار المباني، بل عندما تسكت الأصوات التي كانت تملأها. عندما تصير طاولة الطعام ذكرى، لا خشباً. عندما يصير البيت فكرة، لا جدراناً." (من رواية "الطريق" لكورماك مكارثي)

"الفقد أمام العينين يترك ندبة مختلفة. كأنك تشاهد جزءاً من روحك تُنتزع من جسدك، وتُترك عاجزاً عن الصراخ، لأن صراخك سيكون اعترافاً بأنه لن يسمعك أبداً." (من رواية "الحب في زمن الكوليرا" لغابرييل غارثيا ماركيث)

أمي: " أمينة ، هيا اســتيقظي من النوم ... ســوف تتأخرين ... وســيفوتك موعد انطلاق الحافلة....."

نهضــتُ مســرعة فزعة ... لم أنم ليلة البارحة ، وكنتُ قلقة ومتوترة، فلم تغفل عيني سوى ساعة واحدة فقط.

جهزتُ نفسي وخرجتُ مسرعة، وانتظرتُ عند موقف السيارات ما يقارب نصــف ســاعة أو أكثر حتى وجدتُ نقلًا إلى منطقة البرامكة، وهي المكان الذي ستنطلق منه حافلتي المتجهة لمكان عملي.

فاليوم : 15/4/2014

فالتواريخ قد أصــبحت مهمة في حياتي منذ هذه اللحظة، لذا ســأذكرها لكم بدقة.

اليوم هو يومي الأول في مكان عملي الجديد، فقد عينتُ مدرســـة في كلية الفلسفة في محافظة القنيطرة.

وهذه المحافظة تبعد عن دمشـق مدينتي ومكان سـكني حوالي (87) كيلو متر، وكان عليّ الالتحاق بالحافلة المخصصة لموظفي تلك الكلية.

وصلتُ قبل أن تنطلق الحافلة بدقيقة واحدة فقط، كنتُ ألهث من شدة التعب جراء ركضي مسافة طويلة.

فموعد الانطلاق المقرر في الساعة السابعة صباحاً، دخلتُ الحافلة وسلّمتُ على جميع من فيها، رغم أنني لم أعرف أحداً منهم، فالوجوه جديدة علي، بعضـها ناعس .. وبعضـها الآخر ناقم.... والآخر متشـائم، والباقون ما بين نائم وشاخر.

حدثتُ نفسي قائلةً: يبدو أنّهم مثلي ، لم يستطيعوا النوم ولم تغفل عيونهم قيد أنملة ليلة البارحة.

انطلقت الحافلة مسرعة واجتازت العديد من الأماكن والمناطق ومررنا بجبل الشيخ، وكم كان منظره مهيباً بشموخه ولحيته البيضاء التي تكسوه، رغم أنّ الجو كان ربيعياً.

لم أشعر بنفسي إلّا وأحدهم يوقظني ويقول لي:

" لقد وصلنا ... الحمد لله على السلامة دكتورة."

حدثتُ نفسي قائلة:

" يا إلهي يبدو أنني قد نمت على الطريق... أرجو من الله ألّا أكون قد تريلّتُ كعادتي في المنزل حين أكون نائمة، تفقدتُ وجهي وملابس .. وشكرتُ الله أنّها لم تكن مبتلة."

التفتُ لمن يحدثني كان رجلًا في الستينات من عمره تقريباً، أشيب الشعر قليله، يكح كلما تحرك، ويبدو أنّه بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه، فشكرته ونزلت من الحافلة.

كان المبنى حديث الولادة، فلم يمر على إنشائه سوى سنة واحدة فقط ، كنتُ سعيدة برؤيته، كان الأثاث نظيفاً والمدخل كبيراً، وله ثلاثة أبواب، وعلى واجهة المبنى لافتة كبيرة من الحجر محفورة، ومكتوب عليها اسم الكلية:

كلية الفلسفة الحديثة

ويحيط بالمبنى الأشجار من جميع الجهات وأعشاب خضراء مقلّمة بطريقة جميلة، وبحيرات متفرقة من العشب والورد الأبيض والزهري.

استنشقتُ الهواء الذي لفح وجهي وأنا أقف أمام باب الكلية لأول مرة، كان شعوراً رائعاً.

دخلتها وإذ بي أرى صرحاً ضخماً مشيّداً بطريقة آخاذة، فالبهو واسع ومزخرف ويحيط به عضائد ضخمة من الأحجار الإسمنتية. وكأنّها حرس تقف لحمايته وتحملُ عرش الملك الذي يعلوها.

هذا العرش هو مجموعة من الطوابق المتتالية فوق بعضها البعض، مليئة بقاعات واسعة ومدرجات أنيقة ، وكل قاعة متهيئة بأجهزة إسقاط وآرائك حمراء مخملية، ومساند فضية لامعة ولوح كبير أبيض اللون. كتبت على كل قاعة رقمها: الأولى ... الثانية .... وهكذا.

صعدتُ الطوابق الواحد تلو الآخر حتى وصلتُ لطابق العمادة كما يسمّونه، وكان موزعاً بالعديد من الغرف.

فعلى اليسار تجد غرفة كبيرة واسعة تحتوي غرفة للضيافة بطاولة بنية كبيرة الحجم مستطيلة الشكل، وكراسي بنية عديدة صفتْ على جانبيها بالتساوي.

وفي المنتصف طاولة فخمة وضعت عليها مجموعة من الأوراق والورود والهواتف، ثمّ في منتصفها لوحة مزخرفة شيّد عليها اسم: العميد: الدكتور رأفت علي، وكان هذا اسم عميد كليتنا.

أمّا الغرف الأخرى، فإحداها غرفة نائب العميد ولا تقلُّ مهابةً عن غرفة العميد، أمّا على الجهة اليمنى فتقبع غرفة السكرتاريا وغرفة التصوير وغرفة المحاسبة وغرفة المهندس.

وفي المنتصف تجد غرفة واسعة مليئة بكراسٍ وطاولات، تشكل مكاتب متفرقة، على كلٍ منها لافتة مكتوب عليها اسم الدكتور .... فلان إحداها د. رشا والآخر د. علي ...

كنتُ أقرأ كل لافتة حتى توقفت والدهشة تملؤني كان هناك مكتبٌ وضع عليه لافتة مكتوبٌ عليها اسمي: د. أمينة التقوى

حدثت نفسي: "يا إلهي"

لم أصدق ما رأته عيناي .... إنني الآن معترفٌ بي كأستاذة لهذه الكلية.

جلستُ وراء مكتبي الخاص، وبدأتُ أكتشف كل جزءٍ فيه، فتحتُ جميع الأدراج، وكأنني طفل يكتشف لعبته الجديدة لأول مرة حين يراها.

ومن ثم بدأت الوجوه تتهافت للغرفة، وكلٌ منهم يعرف بدوره أن يجلس، ويعرف مكتبه.

وبدأوا يتحدثون بصوتٍ مرتفع ... إحداهن تقول: "دكتور علي ما أريك أن نتحدث إلى العمادة بشأن تجهيز مكاتبنا بأجهزة حاسوبية خاصة"

فيرد عليها الطرف الآخر: "لا أعتقد د. رشا أنّ ميزانية الكلية تسمح بهذا"

ثمّ يتكلم آخر: "تريثوا في طلباتكم، علينا أن نجهز قائمة بالأشياء الضرورية التي من الممكن أن تؤمنها لنا الكلية."

ويبدو أن الدكتورة رشا قد انفعلت فقالت: "وما هو أهم من جهاز لابتوب نحضر عليه محاضراتنا وأبحاثنا."

وهكذا ما بين صد ورد وسؤال وجواب تعالت الأصوات، وكالعادة كما في كل مجلس لا يخرج أصحابه بأي قرار ولا يتم الاتفاق على شيء.

ثمّ دخل علينا فجأة شاب صغير في العشرين من عمره بسيط الملبس والحديث، وقال لنا:

"حضرات تجهزوا ... موعد الاجتماع سيبدأ بعد عشر دقائق في قاعة الاجتماعات، ترجو العمادة منكم عدم التخلف."

ومن ثمّ استأذن وانصرف ... كان مؤدباً في حديثه معنا وقد سرّني ما ألفى حديثه من مهابة وهذا أشعرني بالرضا وربما نوعاً ما بالغرور.

فأنا الآن أحتل منصباً، يبدو أنّه يضفي على الشخص قيمة ومهابة خاصة.

غادرنا جميعاً الغرفة وتوجهنا لقاعة الاجتماعات، وسرتُ في المؤخرة،

خاصةً وأنني لم أكن أعلم أين تقع هذه القاعة، وكذلك لم أرغب أنْ أكون أول الحاضرين.

وحين وصولنا للقاعة، كانت تبدو رائعة بفخامتها، فالجدران مزخرفة ومزينة بشعارات رنّانّة مثل:

من قـال لا أعرف قلـت لـه تعلم ..... نـابليون بونابرت.....وغيرها.

وهناك تمثال يقبع في زاوية الغرفة يمثل كتاباً مفتوحاً يخرج منه شعاع

نور، وعلى السقف وزعت الأضـواء على شـكل مجموعات، كلَ مجموعة تمثل ما يشبه القلم.

أمّا الستائر فكانت بلونٍ أقرب للأحمر القاني أو " الخمري " في لهجتنا

المحلية، منسدلة على الجانبين تهتز بفعل الريح.

وفي المنتصـف وضـعت أكبر طاولة رأيتها في حياتي، كانت بلونٍ أسـود، أمّا الكراســـي فكانت مغطاة بقماش زيتي وضـــعت عليه وســـادة باللون الأسود، كان يفوق عددها الخمسين كرسياً موزعة على جانبي الطاولة.

جلسـتُ على إحداها وتهافت الجميع للدخول، إحداهنّ ترتدي بنطالاً واسـعاً أسـود اللون وكنزة خضـراء ذات كمين وشـعرها معكوفاً للخلف على شـكل دائرة.

وأخرى ترتدي تنورة بيضـــاء تصـــل لركبتها وكنزة حمراء اللون بدون أكمام. وآخر يرتدي بذلة رســـمية ســـوداء بربطة عنق رمادية..... والعديد العديد من الأساتذة رجالًا ونساء.

جلس الجميع بجوار بعضــهم البعض، كنتُ صــامتة لا أعرف أحداً، التفتُ لأرى من بجانبي كانت أستاذة جميلة الطلعة تبدو في أواخر العشرينات من عمرها، ذات بشـرة بيضـاء يتخللها بعض النمش وعينين سـوداوين وشـعرٍ

أسود فاحم اللون، وترتدي كنزة صفراء اللون طويلة وبنطال أسود ضيق من الأسفل، تعرّفتُ عليها وتبادلنا أطراف الحديث.

أخبرتني أنّها التحقت بذه الكلية قبلي بسنة واحدة فقط وأنّها متزوجة ولها طفلين أحدهما اسمه قيصر والآخر مجد.

مرّ الاجتماع ببطء كبير شعرتُ معه بالملل، وبعد انتهائه واتخاذ قرارات شكلية أو ورقية لا يتمُّ تنفيذها في الأغلب على أرض الواقع كما في كل اجتماع، بدأ الجميع بالتحرك نحو العميد ومصافحته ثمّ الخروج من القاعة، فتحركتُ بدوري وصافحتُ العميد وعرّفته على نفسي وأنني قد التحقتُ حديثاً بالكلية.

تتالت الأيام عليّ يوماً إثر يوم، وتتالت الأسابيع، وما كان يبهرني في البداية بدا شيئاً عادياً ومألوفاً لاحقاً ... وأحياناً كان يبدو خانقاً.

فالطريق للكلية أصبح عبئاً إضافياً يثقل روحي بعد أن كان بمثابة فسحة وتفريغ عن النفس، ولم تعد المحاضرات تسعدني كما في السابق، فقد أصبحت كواجبٍ عليّ تأديته فقط دون محبة.

فالحدود والخطوط التي وضعت لنا كأساتذة في الكلية جعلتني أشعر بأنني مقيّدة لا يمكنني التصرف بحرية حتى أثناء محاضرتي، فالكتاب المطلوب إعطاؤه للطلاب كان قديماً للغاية في التسعينات وبعض معلوماته مشكوك في صحتها، كما أنّنا لا يمكننا استبداله أو إضفاء محاضرات إضافية عليه، أمّا طريقة الإعطاء فقد كانت بأمرٍ من العمادة، ليكون منهجنا واحداً في الإعطاء، هكذا كان يقول العميد في كل مرة تناقشنا فيه بأهمية تغيير طريقة الإعطاء وفقاً لطبيعة المادة وشخصية المحاضر.

وليس هذا فقط، لتأتي اعتراضات الطلاب وتزيد الأمر سوءاً، اعتراضات على الوظائف، وعلى كم المعلومات المعطاة في المحاضرة الواحدة، وعلى طبيعة الأسئلة ونوعها .....إلخ.

كنّا كأساتذة تحت رحمة الطلاب يسيروننا كيفما يشاؤون، وردة فعل العمادة تأتي لصالح الطلاب دائماً، وكأننا في مطعم ونقدم وجبة لم تعجب الزبون ليأتي مدير المطعم ويلوم ويقول: الزبون دائماً على حق.

وما كنتُ أشعر به تجاه هذه المهنة من هيبة وقيمة تبخر بغضون أسابيع قليلة فقط، وقد أكدّ شعوري هذا رؤيتي لبعض الأساتذة وهم يرتشون خلسة من خلال السماح لأنفسهم بأخذ قروشٍ قليلة يضعها لهم الطلاب ما بين صفحات الأبحاث والوظائف المقدمة له، إمّا ليحصلوا على علامة مرتفعة أو تمهيداً لنجاحهم في الامتحان.

وهذا كله جعلني أكره مهنتي وألعن الساعة التي عيّنتُ بها في هذه الكلية.

فلا احترام ..... بل فوضى..... ولا تعليم أو تعلم ..... بل صف كلام فقط.

وهكذا بات عملي شيئاً إجبارياً عليّ إنهاؤه وبسرعة كي أشعر بالراحة. وكانت ولاء هي الهدية الوحيدة التي قدمها لي عملي الجديد.

في الأول من شهر تموز 2014 اتبعت دورة مجانية للغة الإنكليزية في معهد اللغات مدتها ثلاثة أشهر بمدينتي دمشق تمّ ترشيحي لها من قبل الكلية، وهذا بالتالي سيبعدني عن أجواء الكلية ومشكلاتها لفترة من الزمن.

وفي يومي الأول في هذه الدورة، التقيتُ بأستاذة في الآثار تدعى " يارا " وأصبحنا صديقتين مقربتين، تسرُّ إحدانا للأخرى بكل شاردة وواردة.

فيارا تكبرني بسنة واحدة وقد عملتْ في مجالات عدّة قبل قبولها كأستاذة في كلية الآثار منها: مدرّسة لمادة التاريخ في مدرسة الحضارة، ومشرفة على الفلكلور في المسرح الوطني وغيرها.

كانت خبرتها بالحياة كبيرة، وثقافتها واسعة، والأجمل من هذا وذاك أنّها كانتْ نهمة للقراءة، تحبُ الروايات والقصص، وتحبذ الأدب الروسي بشكلٍ خاص.

وهذا ما جمع بيننا، فكانت معظم أحاديثنا تدور حول أحداث رواية ما ، أو رأينا الخاص في رواية أخرى أو شخصياتها أو مضمونها و.....إلخ.

كان حديثي معها يشعرني بالسعادة، ويحفزني أكثر للمطالعة.

بدأت الزيارات بيننا تتعدّى الكلية لتنتقل للمنزل، فتعارفت أسرتانا على بعضهما البعض.

وأصبحنا عائلة واحدة، تجمع بينها ظروف متشابهة وآلام إلى حد ما متماثلة.

فوالدها قد توفّى بجلطة قلبية قبل عشر سنوات، وأجواء طفولتها مليئة بالفقر والحزن مثلي.

وهذا كله قد قارب فيما بيننا لدرجة كبيرة.

لم تكن يارا متزوجة وكذلك أنا، وكنّا كل يوم نتحدث عن أسباب ازدياد العنوسة في مجتمعنا المحلي، فقد كثرت أعداد الفتيات مقابل الفتيان مع مغادرة الكثير من شبابنا لخارج الوطن وطلبهم للهجرة بشكلٍ شرعي أو غير شرعي.

ربما الأسـباب كثيرة لكنّ النتيجة واحدة عنوسـة إجبارية دائمة إمّا لفقر أو لهجرة وامّا لجمال مفقود وغيرها...

تقدّم لخطبة يارا بعد أن بلغت سن الزواج في مجتمعنا وهو الخامسة عشرة تقريباً، أشـخاص مختلفين، منهم من يكبرها بعشـرين سـنة، ومنهم من لا يحمل شهادة جامعية وآخر ذو طبعٍ قاس.

لكنّها لم تجد فيما بينهم رجل واحد يسـتحق أن يشـاركها حياتها، أمّا أنا فلم يتقدّم لخطبتي سوى شـخصـين أحدهما يصـغرني بأربع أو خمس سـنوات، ليس لديه عمل ولا أمل ولا رغبة بالحياة، بالإضافة إلى أنّه قد طلبني رغماً عنه مدفوع برغبة أسرته في أن أكون زوجته وليس رغبته هو.

أمّا الآخر فقد كان يكبرني بخمس عشرة سنة واسمه " رشيد " وهو زميلي في الكلية، وقد كان طلبه غريباً، وسـأعرض لكم ما دار بيننا من حديث في ذلك اليوم.

كنتُ في الكلية أجهز محاضـرتي التي سـألقيها على الطلاب، حينما دخل غرفة المدرسين الدكتور رشيد وقال لي.

د. رشيد :

"دكتورة أمينة ... هل يمكنني أن أتحدث معك بموضوعٍ خاص."

أنا: "تفضل ... ما الموضوع."

د. رشـيد: "إنّني متزوج ولدي أربعة أطفال، وأحب زوجتي كثيراً، فهي طبيبة نسـائية وماهرة في عملها، أمّا أطفالي فلي من البنات اثنتين، ومن البنين اثنين.

أنا: " الله يحفظهم."

د. رشيد: "شكراً لك.... من فضلك لا تقاطعيني".

أنا: "عفواً ... تفضل."

د. رشـــيد: "لـديّ والحمـد لله الكثير من الأطيـان والممتلكـات والبيوت والشـركات والمشـاريع الاسـتثمارية، فقد فتحتُ مؤخراً روضــة للأطفال، وقبلها بفترة بنيتُ مركزاً لتعليم اللغات هنا في القنيطرة."

أنا:" هذا رائع ... ما شاء الله."

د. رشـــيد: "وأنا لســـتُ كبيراً ،في العمر كما تعلمين الرجال لا تتقدم في العمر، فأنا ما زلتُ في زهرة شبابي."

أنا: "دكتور من فضلك سأتأخر عن محاضرتي... ما الذي أستطيع القيام به من أجلك."

د. ر" لن يحدث شيء للطلاب إذا لم تلقي محاضرتك اليوم. "

أنا: " من فضلك ليس من عادتي أن أتأخر عن محاضرة لي."

ثمّ جهزت نفسي لأذهب، فقال لي: د. رشيد :" حسناً فقط خمس دقائق." أنا: " تفضل."

د. رشيد:" نحن كعائلة أصولنا تعود لمدينة دمشق، فأجدادي من دمشق، ثمّ انتقلوا ليعيشوا في القنيطرة."

أنا: "جميع الناس خير وبركة ... مهما كانت أصــول عائلاتهم. د. رشــيد: "أنا سأتزوج مرة ثانية ."

أنا:" إذا كانت زوجتك السابقة موافقة، فلا بأس."

د. رشيد: "ما رأيك بالزواج المتعدد."

أنا: "بالطبع لا أوافق عليه، لأنّه من الظلم أن تشـــارك زوجتك فتاة أخرى معك."

د. رشيد:" إنّها من تدفعني للزواج ولا تمانع عليه، حتى أطفالي لا يمانعون ذلك، هل أصحبك لتسمعين بأذنيك."

أنـا: "ومـا دخلي بـالموضـــوع، أنـت وعـائلتـك أحرار فيمـا تتخـذونـه من قرارات."

واكتســت حمرة قاتمة وجه الدكتور رشــيد، فهو كان ذو بشــرة شــديدة السمرة، وعينين خضراوين، وشعرٍ أسود فاحم، وكان قريباً لي في الطول، وذو صحة جيدة.

د. رشــيد:" أرغب في التقدّم لخطبتك ، لتكوني زوجتي الثانية، وأريدك أن تعلمي منذ الآن أنني ســأطبق الشــرع وســأتزوج أربعة، وأنّ هناك زيجتين بعد زيجتي عليك."

ابتسمت في سرّي والابتسامة امتدت لضحكة لم أستطع كبتها.

كان واثقاً من موافقتي وكأنّه الزوج المثالي الذي تحلم به كل فتاة، وأكثر ما يضــحكني أنّني ســأكون الرقم 2، حدّثتُ نفســي : من يظن نفســه، فقاطع صمتي بقوله.

د. رشيد: "ما رأيك، متى ترغبين أن أزور والدتك."

أنا: "على رسلك دكتور رشيد، أخبرت حضرتك أنني لا أحب الزواج المتعدد، حضرتك رجل لا تعاب، لكنني أنا لا أحب أن أكون زوجة ثانية.

د. رشيد: "إذا رغبت سأصحبك لترين منزلك إنّه كالقصر في جماله، تعالي معي."

اعتذرتُ منه واستأذنت بالانصراف فقال لي شيئاً غريباً.

د. رشيد:" أليس الحلال أفضل من الحرام، أم ترغبين بالحرام."

اضطربت وغضبت ولم أرغب في الرد على شخصٍ مثله، لقد ظننته شخصاً مثقفاً ومتحضراً، ولم يخطر ببالي أنّه رجلٌ منحرف فخرجتُ فو ارً من الغرفة ولم أرغب في رؤيته مجدداً، وإن التقيته كنت لا أدير وجهي عليه.

ومرّت الأيام، إلى أن جاء اليوم الموعود، يوماً لا مثيل له غيّر حياتي وقلبها رأساً على عقب، كان ذلك في **الخامس من أيلول .2015**

فلأسرد عليكم ما حدث قبل هذا التاريخ ، ولكن قبل هذا سأعيد شريط حياتي إلى الوراء قليلًا، لتعلموا مقدار الألم الذي كان يكبر كل يوم.

قبل 31/11/2011

كانت فترة هادئة رغم ما بها من توترات ، لفترة من الزمن لم يدم هذا الهدوء وتحول لفترة عصيبة مع ما مرت به البلد من أزمة ومعاناة، بدأت أزمة بلدي في درعا ثم انتقلت لدمشق عاصمة بلدي سوريا، وانتقلت من دوما للغوطة ومن ثمّ لمنطقتي التي أسكن بها.

في البداية تجلّت معظم الأحداث بإطلاق نار وهجوم تارة وانسحاب تارة أخرى، واطلاق رصاص من بندقية، واطلاق مدافع في الهواء وأصوات طائرات حربية تحوم في الأجواء، إلى اشعال حرائق هنا وهناك، إلى أصوات تكبيرات بعيدة تنادي الله أكبر، كنت دائماً ما أقول في قلبي الله أكبر على كل معتدي وظالم، لم ننعم بالراحة من وقتها، ولم نشعر بطعم الأمان من حينها، بل وحتى لم يغفو لنا جفن من ساعتها، معظم الوقت ونحن خائفون مترقبون ماذا سيحدث؟

في البداية كان الوضع مخيفاً ومقلقاً، ثم تمّ التعود، اعتدنا أصوات الحرب والرصاص والمدافع والصراخ، وأصوات الألم والحزن والخوف والوحدة الرهيبة، حتى إننا كنّا نستغرب لماذا يخاف الضيوف ولا يأتون لزيارتنا ؟ لا شيء غير عادي في حيّنا، فقط الكثير من الرعب والكثير من الموت، لم يكن يسمح لنا بالتجوال حين يحل المساء وتطلق المآذن تكبيرات صلاة المغرب، إنها تكبيرات التوقف عن الحركة والجمود وعدم الخروج من المنازل، وفي الصباح كنّا نغادر بإذن بعد اخبار الحاجز العسكري الكائن أمام حيّنا أين سنذهب ولماذا ونريه بطاقتنا الشخصية؟ وأحياناً لم يسمحوا لنا بالمغادرة دون إبقاء البطاقة الشخصية لديهم.

عليك دائماً أن تُفتش وتُسأل وتَسرد ما مررتَ به من لحظة خروجك لعودتك إلى منزلك، ثم عليك أن تُعلمهم ماذا أحضرت لمنزلك من طعام وخضراوات، بل إن كنت تحمل وزناً زائداً عليك أن تتركه لديهم، لم نكن نعلم ما هو الوزن المثالي الذي يقيسون به حمولتنا وأغراضنا.

كما هناك قواعد في كل مكان عليك أن تتبعها، فمنطقتنا أيضـــاً أصـــبح لها قواعد خاصــة مميزة، فالخروج بإذن والعودة بإذن وادخال أي شــيء بإذن، ممنوع الكلام كثيراً وممنوع الحركة ليلًا حتى على المساجد.

كل هذا أصـــــبح مع الأيام روتيناً يومياً تأقلمنا معه وتآلفنا معه بل وحتى توحدنا معه، وتبع الأصـــوات آثار وأفعال مؤلمة وشـــظايا أصـــابتني في رقبتي، وتركت أثراً لا يمحى كلما نظرتُ في المرآة ابتســـمتُ وقلتُ الحمد لله ما زلت على قيد الحياة ، الحمد لله أنَّ الشــظية لم تدخل في رقبتي لكنت متُ حينها، ثم تبع ذلك تدمير واحراق لخزانات الكهرباء، ثم قطع لخطوط الهاتف، ثم رمي بمدفعية على بستان يقع خلف منزلنا زلزل كيان منزلنا بل وزلزل قلوبنا ونفوسـنا، حينها فقط قررت الأسـرة أن تغادر المنزل لبعض الوقت، وبذلك انقسمت عائلتي لفريقين ما بين مؤيد للخروج ومعارض لها، وما بين صدٍ ورد، وعرض ورفض، وجدال وخلاف وتوتر وصراخ، آثرنا البقاء في المنزل دفعاً لمزيد من المشـكلات والخلافات، يكفينا ما نعانيه من حولنا، يكفينا ما نشاهده بأعيننا، يكفينا ما نسمعه بآذاننا.

لكن ما فائدة ما نفكر فيه أمام ما يمر حقاً وما شاهدناه حقاً. **قبل ثلاثة أشهر من الحدث العظيم /5/9 2014**

كان يوماً كالمعتاد مشمس وشمسه حادة، وكنت أعمل حينما جاءني اتصال من أختي تقول فيه هل لديك ورق مهم لنأخذه معنا، يجب علينا الخروج من المنزل، ثم انقطع خط الهاتف ولم تكمل أختي حديثها، ما الذي حدث حينها، أصابني الهلع حتى عدّت سريعاً لمنزلي، كان الهدوء مهيمناً على المنطقة، وظلال الرعب في كل مكان، وجناح الخوف يطير فوق ســـماء منطقتي، كان منظراً واحســاســاً غريباً، وجوه مصــفرة قلقة صــامتة، وحينما دخلت

منزلي وجدت ســـقفه قد انهار نتيجة تحطم ســـقف جيراننا نظراً لقذيفة قد دخلت به وأدّت لانهياره على سـقفنا، وحائط منزل جيراننا قد انهار أيضـاً، أمّا غســيلنا فكان ينتظر جفافه، لكنّه بدلًا من هذا انتظر تشــققه وتلفه كلياً، رمال وصـــخور وحجارة في كل مكان، وكانت أســـرتي قد أعدت العدّة للخروج، ونظراً لأننا لا نســتطيع أن نســتأجر بيتاً آخر، لذا قررنا الذهاب لزيارة لدى أحد الأقارب وأقمنا هناك لمدة أســبوع ورغم حســن المعاملة والترحيب إلا أنّ الفرد يشعر بنفسه ثقيلًا خارج بيته، مهما حاول أهل البيت الذي اســتضــافنا إســعادنا لم ينجح في مســاعيه، فقد أنهكنا الخوف، الألم، القلق، الخوف من الغد والمستقبل، رغم أننا نؤمن بقضاء الله وقدره لكننا لم نصل لدرجة الرضا، الرضا بما كتبه الله لنا.

وبعد مضـــي أســبوع، عدنا لمنزلنا، وكم كان شـــعوراً مخيفاً حينما رأينا المنطقة تصـفّر بها الرياح خالية من السـكان ولا صـوت يعلو على صـوت السكون والحزن، أرض مقلوبة وأخاديدها مغروسة كأنّ آباراً حفرت بها ، بيوتٌ حزينة لرحيل أصحابها ومنطقة مشتتة ضائعة مفجوعة، لا يُرى فيها سوى الأسلحة، وزيٌ واحد منتشر في كل مكان، زي عسكري مدجج بكافة أنواع الأســـلحة يســـتجوبك حين تدخل وحين تخرج، لم نعد قادرين على إحضار أي شيء للمنزل.

تتالت الأيام وتوالت المخاوف وأصـبح الاسـتيقاظ صـباحاً على أصـوات غليظة لمغنين لم يدرســـوا فن الموســـيقا ولم يتعلموا العزف ولم يرهفوا أسماعهم، أشخاص يركضون حول المنزل وصراخ يزلزل الأرواح.

أصـــبحنا ننام في غرفة داخلية أبعد ما يمكن عن الخارج، عن جدران المنزل المطلة على الطريق.

أصبح الخوف ملازمنا كظلنا، حيث بتنا نخاف أن نذهب للحمام، فقد نصاب بشيء أو نلقى هدية ملتهبة قد تحرق عضواً ما أو جزءاً من أجسادنا.

كل هذا كان عادياً إلى أن جاء يوم ليس كأي يوم في الخامس من أيلول، حيث كان يوماً مشهوداً.

الخامس من أيلول 2014 يوم حفر في ذاكرة من عاشـــوه معنا وبقيت آثاره إلى الآن.

يوم لن يأتي له مثيل أبداً ما حييت، سأظل أذكر هذا اليوم حتى الممات.

ليس رغبة مني لأكون ضحية أو لُأشعر من حولي بما مررت به ليشفقوا علي، وانّما أكتب لنفسي لرغبةً مني أن أقرأ ما كتبت في اليوم التالي.

وإني الآن وايم الله لست حاقدة على أي شخص كان سبباً في تجربتي هذه، ولا ألوم أي يكن، ولا أجتر الماضـــي، ولكنني أشـــكر الله كثيراً ، أشـــكره لأنني الآن هنا وما زلت أستطيع الكتابة وأشعر بالأمان رغم مخاوفي.

في ذلك اليوم وبعد أذان الصبح قمنا للصلاة وجلسنا نذكر الأذكار ونقرأ القرآن.

من عادتي أنام بعد الصلاة والذكر لساعة أو ساعتين، ما عدا والدتنا تبقى حتى شروق الشمس.

حينما أردت النوم وإذ بأصـــوات تعلو فوق صـــوت الرصـــاص وبأرجل تتحرك هنا وهناك وفي كل مكان

ثم أصوات صراخ

وبعـد..... ... هـدوء مفـاجئ ومرعـب، تملكنـا الخوف والرعب لبسـنا أي شـيء وجدناه أمامنا وقلت لأسـرتي: هيا لنجمع أوراقنا وبطاقاتنا الشخصية وكل ما نملكه بسرعة .....

وضـعت أي شـيء وصـلت يدي اليه، ومن شـدة خوفي لم أعي ما أقوم به، كنت أرتجف .... وإذ بطرق على الباب ثم تشـتدد الطرقات والصـيحات، وتشتد وتشتد.

أفتح الباب لأرى شخصاً يضع عصابة على الرأس ويطلب مني جهاز

الهاتف الخليوي (الموبايل) الخاص بي ... أعطيته ما يريد من فوري، دون أن أعي ما أفعله أو أسأل المتطفل علينا صباحاً ماذا سيفعل به ولماذا يريده؟.

ومن ثم سـمعنا الصـوت يقول هي اخرجوا بسـرعة والا (ووجهت البندقية إلينا) ... وأنتم تعلمون ما الباقي .. فأي روح لا تسـتطيع مقاومة طلقة، كما لا تقاوم العين المخرز.

خرجنا مسـرعين .. بحذاء أو بدونه لم يعد مهم ، المهم أن ننجو بأرواحنا، أصـبحنا ضـيوفاً على منزلنا، وطلب منا مغادرته فوراً، ضـيوف طالت إقامتهم ولم يعد يتحمل من استحلوا المنزل وعدوه منزلهم بقاؤنا فيه.

كنّا نرتدي أبسـط الملابس بل أقدمها ولم نكن نحمل سـوى أوراقنا فقط، كنّا عراة من الأمـان، من الـدفـء، كنّـا عراة من الحـب، عراة من السـعـادة والفرح، إحساس عميق بالهجر والضياع والوحدة.

أخذونا لبيت من بيوت جيراننا وأمرونا بالبقاء ، وهنا تذكرت اللابتوب

خاصـــتي وأردت الذهاب لأخذه فتحججت لهم أنا وأمي بحاجتنا لبعض الملابس ...

اســـتجابوا لطلبنا وعدنا للمنزل، لم أعرف ماذا أفعل، أخذت اللابتوب وأردت حمل بعض الملابس، ففقدت القدرة على التركيز وفقدت طاقتي ووقفت عاجزة، صرخت بي أمي : هيا ... أمينة ... وجاء الصوت يطلب منا السرعة، خفت كثيراً ،وحملت ما وجدته أمام ناظري وأسرعنا بالعودة، قسمونا لمجموعتين النساء في غرفة والرجال في غرفة حدثتُ نفسي قائلةً : هل هذا هو دينكم .....

حين وصلنا إلى المكان الذي قادونا اليه... وجدنا كثيراً من الأشخاص

هناك رجال ونســـاء وأطفال، ووزعنا لمجموعتين النســـاء والأطفال بغرفة والرجال بغرفة أخرى.

أخذنا ننظر لبعضـــنا البعض ... منّا من كان يرتدي ملابس نومه، ومنّا من كان بغطاء صـــلاة على الرأس فقط .. ربما لم يســـمح لهم بارتداء شـــيء، ومنهم من يرتدي قميصاً داخلياً ...

علمنا منهم أنّ زوج إحداهن قتل... وامرأة قتلت لأنّها لم ترضـــى أن تأتي معهم ... وآخرين قد لُفّوا بشـــراشـــف كانوا ينامون في ثبات عميق لن يستيقظوا منه.....

بالمقابل هناك من يحمل حقائب كبيرة وأكياس كثيرة ... حدثتُ نفسي قائلة: متى اســـتعدوا وجهزوا أنفســـهم، وكأنّهم مســـافرون لا محجوزون ومخطوفون .

كان هناك من يبكي ويلطم نفســـه ... وأغلب الوجوه كســـاها الدهشـــة واعتراها القلق والخوف.

والكل يحدثُ نفسه: أي مصير ينتظرنا ....

كنّا نسـأل أنفسـنا ولم نكن نرفع أصـواتنا .... هكذا أُمرنا... فصـوت المرأة عورة ...

كنّا نبكي بصمت .. بقلوبنا ... بجوارحنا...

من لديها أطفال تعانقهم وتحيط بهم وكأنّها لن تراهم ثانية أو أنّها تخشـــى عليهم من الغد....

نسمع حركة ونسمع أصوات ونرى أشخاص جدد يأتون بهم إلينا، أصبح عددنا كبيراً في غرفة ضـــيقة ... منّا من لم يجد مكانا يرمي عليه همومه ومخاوفه، فظلّ واقفاً.

إلى أن جاء الصوت وأمرنا بالتحرك ... وهم يقولون لنا: فلتجتمعوا هيا

ولتسيروا خلفنا والبنادق موجهة إلينا...

كنّا كالأموات، فالأموات لا تســـمع، وإن ســـمعت .... لا تنطق... وإن نطقت .. خرجت أصـــواتها بلا حروف وبلا كلمات... فعلنا كما قالوا لنا وبدأت رحلتنا من هنا.

خرجنا من باب المنزل لنصـــعد على درج بيت آخر .. لنمر بفجوة كبيرة حُفرت حديثاً في جدار بيت آخر .. لننتقل من فجوة لأخرى ... ومن بيت لآخر .. ومن مكـانٍ لآخر ... والخوف يعلو والقلق يـدوي ... والبكـاء والعويل يسيطر علينا.

كلُ هذا ونحنا مازلنا نمشـي ... لفتني شـاب يسـاعد والدته الجالسـة على كرسي ..يحاول أن يرفع الكرسي في كل مرة ليدخله في فتحة الجدار

وينتبه كي لا يرتطم رأس والدته بالحجارة أو يصـيبها مكروه و.. ويكسـو وجهه الرضا ... هنا سألت نفسي:

"أي رضا قد منحك اياه الله لتبقى هادئاً رغم كل شيء وكل ما يجري حولنا يثيرنا ويدمينا ... سبحان الله"

إلى أن وصـلنا لممرٍ طويلٍ لا أعرفه ولم أره سـابقاً، حيثُ لم نعد نعلم أين نحن ... هل وصـلنا للطريق العام ... مع العلم أن بيتنا لم يكن يفصـله عن الشارع العام سوى ممرٌ صغير لا أكثر.

ثمّ يأتينا الأمر حين وصـولنا لمنزل ما: توقفوا وابقوا هنا، ومن لا يدخل يتمّ إجباره على الدخول إمّا رفسـاً بالأقدام أو دفعاً بالأيدي، أو ضـرباً بالبنادق والحجارة.

كان المنزل صـغيراً وبسـيطاً، وصـاحبته كانت امرأة مسـنة بل طاعنة في السـن، ترتدي حجاباً ملوناً وتنورة فضـفاضـة طويلة وقميصـاً كبير الحجم، يكسو وجهها الثآليل، وقد تركت الدنيا خطوطاً للزمن في وجهها.

كانت صاحبة المنزل مرتاحة، وقالت لنا تفضلوا ...

حدثتُ نفسـي: ...هل أضـحك أم أبكي .. هل نحنا هنا ضـيوف ... لا نريد ضيافتكم أعيدونا لمنازلنا .. لم نأتِ برضانا .

جلسـنا فترة هادئين شـاحبين حت أتى الصـوت تحركوا بسـرعة من هنا، وبدأنا المسـير مجدداً... أحسـب نفسـي قمت برحلة حول العالم ... لا أعلم

كيف كان شــعوري وشــعور من حولي في تلك اللحظة، كنّا كالدواب التي يسيّرها أصحابها وينقلونها من مكانٍ لآخر.

ومن ثم وصــلنا ... وصــلنا لمعمل كبير كان يصــنع المناشــف، كان هناك الكثير منها ملقاة هنا أو هناك.

رغبنا بالدخول معاً كل مع ابنه أو زوجه، لكن أتت الأوامر بدخول النســاء فقط ومن ثم أخذ الرجال والشباب بعيداً لا نعلم إلى أين.

كانت معنا من بين الجالســات أمّاً ملتاعة على ولدها تخشــى عليه، رأيتها والقلق ينهش قلبها، فرغبتُ بمســاعدتها ، لذا ذهبتُ إلى أحدهم وطلبت منه أن ترى هذه الأم ولدها الوحيد لا أكثر.

كانت الأم تترجاهم، وأمســكت بيد أحدهم وقبّلتها وتقول له: أرجوك فقط أريد أن أراه.

بالمقابل كان من تمسك بيده كالحجر يبتسم ويضحك مسروراً بذل هذه

المرأة وانكسارها، بعد جدال سمحوا لها برؤيته وأحضروه لها كأنّه سجين، ثمّ أعادوه لموضــعه بعد أن رأتـه لمدة دقيقة واحدة لا أكثر بحجة أنّ الاختلاط ممنوع.

حدثتُ نفســي: "اختلاط من بمن .!!.. هل اختلاط الأم مع طفلها ؟... أم اختلاط الزوجة مع زوجها ..؟. أم الأخ مع أختـه؟ .. أم ماذا ؟... حرام عليكم. "

جلسنا ساكنين لا حراك، ولا صوت إلّا صوت الجوع.

كانت النساء تصرخنَّ بأطفالهنّ كي يصمتوا، وكأنّ كل واحدة منهن تصب ما بها من خوف وحزن على رؤوس أطفالها.

ورجل طاعن في العمر معه صـــغيرين ربما هم أحفاده، كان يبدو منهكاً ونظرة القلق تفتك صدره وهو يحاول تهدئتهم .

وأم في حالة نفاس تتلّوى من الألم، وقد مرَّ على ولادتها لطفلها خمسـة أيام فقط ... خمسة أيام فقط عمر رضيعها الذي يصرخ جاهداً ليقول:

"إنني جائع... وأمّي ما بين الحياة والموت لا تسـتطيع أن تطعمني ... ماذا أفعل وما الذنب الذي اقترفته لأعاقب بهذه الطريقة وأولد محروماً من لبن أمي وحنانها، ما ذنبي لأصبح يتيماً ..؟؟؟؟.."

أمّا الأم فقد كانت في حالة صـدمة، حيثُ انهارت على الأرض وأصـبحت تتعرق وترتعش، حتى أصـــابها نزيفٌ حاد أودى بحياتها، فارقت الحياة والاطمئنـان يملأ وجهها على صـــغيرها، وكـأنّ ملامح وجهها تقول لـه: "ســـأدعك بين يدي من هو أحنُّ عليك مني ... ســـأدعك بين يدي الله عز وجل."

كانت الجدة ملتاعة على ابنتها، وعلى حفيدها الصغير، الذي ما لبث أن

التحق برحال والدته، رافضاً فراقها، سعيداً بمرافقتها.

امتلأت النفوس بالخوف والرعب، من أن نلاقي المصـير نفسـه، فالصـغار يبكون والنســاء تصــرخ ترجياً وتذللًا قائلين: افعلوا بنا ما شـئتم .. لكن لا تدعونا نرى أطفالنا تموتُ أمام أعيننا.

وضعنا بعض المناشف التي وجدناها على جثة الأم وصغيرها، وتلونا لهما بعض آيات من كتاب الله ودعونا لهما بالرحمة والدموع تملأ أعيينا.

لكنّ الصوت كان يأتي بالرفض، قائلين: لا لاااااااااااااااا

فلتموتوا جوعاً... هذا هو ديننا وشـــعارنا .. الاختلاط ممنوع ولكن الموت جماعاً مسموح ...

سمعنا أذان الظهر يأتين من بعيد، تلاه خطبة يوم الجمعة ... حدثتُ

نفسي: لقد عكروا صفو هذا اليوم الجميل

ونحنا نســـمع الخطبة أخذ منا الحزن كل مأخذ .. وبدأنا بالبكاء والنحيب والدعاء .. دعاء من قلب أم لوعة .. أخت ... زوجة .. طفلة ... يا رب نجنا مما نحن فيه.

انتهت الخطبة وتلاها الصمت والحزن والألم ... إلى أن سمعنا صوت

طائرة في الســـماء تقترب ... قلقنا كانت قريبة جداً ودوي صـــوتها زلزل جوارحنا قبل ديارنا.

تلاه ضحك من هؤلاء الذين لا وصف لهم، يختبؤون خلف البيوت وبين

الحجارة ويجترّون العلكة كما تجترُّ الماشية طعامها.

قلتُ في ســـري: ربما هي مادة مخدرة، تجعلهم بلا وعي وبلا عقل، فما الذي يضحك، هل صراخنا؟ .. هل بكاؤنا ؟... ويل لكم.

تلا ذلك صوت يجلجل يهز الأرجاء ... أصبحت الأصوات تلتقي ببعضها دون توقف لتثير غباراً وشظايا .

جاء الأمر: اجمعوهم معاً الرجال والنساء في مكانٍ واحد.

يأتي الرجال مسرعين إلينا في المعمل الذي نحن فيه ... لكن تسبقهم

أسـماك طائرة تحط أمامهم مشـكلة فجوةً كبيرةً مخيفة في الأرض، ناثرةً الرمال والغبار والحجارة، فملأت الجو، حيث لم نعد نرى شيء.

أخذنا نصرخ ونصرخ خوفاً منها وخوفاً على رجالنا .. منهم من أصيب ... ومنهم من نجا ... ولكنّ السواد زاد الغباش ومنعنا من رؤية الأحبة.

بدأت غيوم الألم تزول، ودخل بعض الرجال الذين كتب لهم النجاة.

وحين التقت أعينهم بأعين أحبائهم كان عناقاً رهيباً تهتز له الأرض وتقشعر له الأبدان، أخذوا يضمون بعضهم ويقبلون ويبكون معاً ، وقد أثّر في نفسي الأم التي ترجتهم سابقاً لرؤية ابنها الوحيد، كانت تصرخ وتنظر في وجوه الناجين وتقول : أين ابني، أين هو ... بعد فترة دخل ... وكان سليماً معافى .. لم تعرف الأم أتضحك أم تبكي .. لكنه أصبح ذا شيبة من شدة الغبار والرمل الذين غطيا كل جسده ورأسه.

لقد بكت الأم كثيراً ... وعلمنا لاحقاً أنّ من الذين توفوا جارنا وابنه.. وأنّ آخرين أصـيبوا، منهم من أصـيب بقدمه ومنهم من أصـيب برأسـه .... وغيرهم كثيرون.

هنا اغلقوا علينا الأبواب ..كان باب المعمل كبيراً كأنّه سـجن عظيم اختنقنا كثيراً وبكينا كثيراً ً .

أغلقت ابواب المعمل علينا ... والخوف عما القلوب ... لا نعرف ما الذي ينتظرنا ... بعد فترة من الزمن فتحت الأبواب ، دخل أحدهم ويحمل معه حفاضات للأطفال وبعض الأطعمة.

كانت هذه الحاجيات قد ســـرقت من محل لأحد الذين هجروا معنا، ورغم هذا لم يهتم أحدنا بالاهتمام والسـؤال حول مصـدر هذه الحاجيات، بل إنّهم بدأوا يركضون ويتسابقون ويتدافعون ليحصل أحدهم على نصيب أكبر من أجل أطفاله.

واشتعلت نيران الغضب بين الأمهات، من منهم يأخذ كيس غيارات الأطفال أولاً؟؟.

رغم ما بنا ورغم ما أصابنا، لكن في هذه اللحظة، لم يفكر أحدٌ منّا إلا

بنفسه وأطفاله فقط، أما الآخر فليس مهماً في نظره.

هدأ الأطفال قليلًا بما حصـــلوا عليه من طعامٍ قليل بعد معارك ضـــارية، ولكنّ ما تناولوه لم يسكت أصوات بطونهم الجوعى فعادوا للبكاء.

عرض جارنا عليهم أن يذهب لبيته ويرافقه أحدهم ليحضر ما فيه من طعام للصـــغار ، وبعد جدالٍ مطولٍ وافقوا.. وكان قد أصـــيب بشـــظية في قدمه وبات أعرجاً.

أحضر كل ما استطاع أن يحمله من طعام وخبز .

تهافتت عليه الأيدي والأعين، والتف حوله الصـــغار .. للحظة وفي خضـــم هذا نسينا أننا قد خطفنا.

وربما رغبنا أن تكون هذه وجبتنا الأخيرة، فلنتناولها بصـــمت، وكانت حصة الصغار هي الأكبر، حيثُ اكتفى الكبار بقطعة خبز صغيرة.

أخذنا نعدُّ الساعات إلى أن جاءت اللحظة والساعة والدقيقة المشؤمة ، حيثُ سـقطت على جدار المعمل سـمكة كبيرة الحجم قسـمته نصـفين وتناثرت الشظايا وزجاج النوافذ، وكانت كالسكاكين تصيب من أمامها ...

غبار ودخان وسـواد ورمال . تعانقنا معاً وأمسـكنا بأيدي بعضـنا البعض، وما إن هدأت حتى صـــرخ أحدهم، فالتفوا حوله، كان وجهه بلون الدم .. ينزف، ساعدوه وحاولوا اسعافه.

وركضـــنا باتجاه الباب نريد الخروج، نريد الهرب لأي مكان، لا نريد الموت هنا.

مُنعنا من الخروج وكان جوابهم: أاريتم ما فعلوا بكم؟؟، نحنا هنا لإنقاذكم.

حدثتُ نفسي: "تنقذوننا ممن؟ ولماذا لا تسمحون لنا بالعودة؟ .. لم نعد

نريد منازلنا؟ .. نريد فقط العودة لشـــارعنا لمكان نعرفه وإن كان الشـــارع العام الذي تطل بيوتنا عليه .. دعونا لم نعد نريد شـــيء لا بيت لا أثاث لا مال، نريد النجاة بأنفســـنا وأطفالنا فقط..... دعونا نتدبر أمورنا، جعلتم منّا ضحايا وماذا تريدون منّا أيضاً."

كنُا واثقين أنهم قد سرقوا بيوتنا ونحنا هنا مسجونين في هذا المعمل، لكنّهم أصـــرّوا أنّهم يريدون إنقاذنا وأنهم يحاولون إيجاد طريقٍ لنا بعيداً عن القصف.

ومن ثمّ تركوا لنـا الخيـار بقولهم: من يريـد الموت فليـذهـب من هـذا الطريق..... مشيرين لطريقٍ ربما يوصل للطريق العام.

هنا وقفتُ وتدخلتُ وأخبرتهم قائلةً: "

هيا بنا نحنا مجموعة سننجو معاً"

اقترحت عليهم أن يحمل كلٌ منّا منشفة ويضـعها حول رقبته ورقبة زوجته وعلى كل طفل من أطفاله.

وللحظ كان لون المنشفة أبيض وأزرق.

فقلتُ لهم: "هذه علامة سلام، سيمشي الرجال أولا ثمّ الأطفال ثمّ النساء في الصف الأخير."

وبعد أن نفذوا ما قلته لهم وشـكّلنا المجموعة مصـطفين كما أشـرتُ لهم، شـلت حركتنا وتوقفنا عاجزين عن فعل شـيء، فخوفنا من أن يغدروا بنا كان أكبر .

لذا سرنا في الطريق الذي أشاروا لنا بأنه طريق النجاة، سرّنا في الطريق الموت والخلاص.

أشـاروا لنا بالتحرك وبنادقهم موجهة إلينا والابتسـامة تعلو وجوههم، وأحدهم يلتقط لنا الصـور، واحداً واحداً وكأننا نصـوّر فيلماً لا نعيش واقعاً مؤلماً. حينما جاءنا الأمر بالتحرك، نظرنا فوجدنا فجوة كبيرة صـنعوها بالجدار من خلال مطرقة كبيرة .. ما تسمّى بالمهدّة.

سبقنا أحدهم ليكون مرشدنا في رحلتنا الطويلة وأحاط بنا الأخرين منهم.

بدأنا بالدخول فرداً فردا، فالفتحة كانت ضيقة ولا تتسع لأكثر من شخصٍ واحد، مشـــينا ومشـــينا على أرضٍ زراعية ثم أمرنا بنزول نفق حفر في الأرض، لا نعلم متى تمّ حفره.

نفقاً من طينٍ وحجارة ورمل شـديد الظلمة، أمسـكنا بأيدي بعضـنا البعض ونحن نمشي فيه، كان طويلًا للغاية.

أجزاءٌ منه كانت مضـاءة وأجزاء أخرى كانت أحلك من سـواد الليل، حتى لو أغمضنا أعيننا أو فتحناها سواء ، لم نكن نبصر.

أخذنا نصلي لله وندعو.

وهنا تذكرت قصـة قديمة لفتى ضـاع عن منزله فأخذ يقول في سـره ... يا هادي يا دليل ... ومنذ تلك اللحظة لم أعد أتكلم وبات قلبي ولساني

وجوارحي لا تردد سوى هذه الكلمات .. يا هادي يا دليل.

ارتطمت رؤوسـنا ... واسـتمرينا في المشـي ..وخرجنا من النفق سـالمين والحمد لله.

قارب النهار على نهايته واقترب أذان المغرب، كنّا قد قطعنا النفق ومن ثمّ أرض واسـعة خضـراء يتخللها نهر فوقه جسـر من خشـب .. مشـينا عليه واهتز من تحت أقدامنا .. إلى أن تزعزع وانكسر لتقع والدتي وتعلق قدمها .. كل منّا أمسـك بيدها من طرف ورفعناها .. لكنها أصـيبت اصـابة بالغة في قدمها، جعلتها تنزف دماً كثيراً ،اضـــطررت لقص قطعة من ثيابي من الأسفل ولففتُ بها قدمها.

امتلأنا غباراً وقذارة، لنصـــل لمنطقة مدمرة مهدمة، البيوت فيها تعانق بعضها البعض، والأوساخ والقمامة تحملها الرياح لتنقلها من مكانٍ لآخر.

لوحات مكســورة ترتطم ببعضـــها ، صـــفير الريح في كل مكان، منطقة موحشة بكل ما للكلمة من معنى.

تعبنا وأخذ التعب منّا كل مأخذ، فأجســـامنا باتت هزيلة وجوعى ودامية ومصابة.

وكما يقولون ارحموا عزيز قومٍ ذل، ولكن أين للرحمة من قلوبهم.

نسير خلف بعضنا البعض، نبكي ونتأوه ونتلوى، ومن ثمّ نتوقف لنرتاح قليلًا ، ثمّ نعاود من جديد .

إلى أن وصلنا لبناء محطم، يعتبر مرمى للقمامة والرمال والحجارة المتكدسة.

بناءً كان شاهقاً ولكنّه الآن أصبح طابقاً واحداً فقط، أصبح منزلًا عربياً مشوهاً متخلخلًا.

أمرنا بالجلوس فيه، لكن أين نجلس ، حدثنا أنفسنا: هل أصبحت أرضنا هي قمامتكم وأوساخكم .. أوفٍ لكم.

كانت الرائحة كريهة وقاتلة، لكننا انصعنا وجلسنا، ليس الخوف فقط هو ما دفعنا لمسـايرتهم وإنما التعب أيضـاً، جلسـنا على حجارة ورمال وشـظايا وطلقات رصاص مرمية، اتخذناها أرضاً لنا فهي أشرف من قمامتهم.

جاء أحدهم ليسمعنا أوامرهم مجدداً، ستنقلون على دفعات وستحمّلون في شاحنات، سنوصلكم لمنطقة آمنة.

كان جرح والدتي قد اشتد، ونزيفها تفاقم، وأصابتها الحمّى جراء إصابتها ولم تعد تستطيع السير، وهذا جعلنا نبقى في المؤخرة، كنّا نراهم يشكلون مجموعات ويركبون سيارات تمّ إحضارها لنقلنا، لم تكن سيارات فعلياً بل شاحنات ينقل بها الدواب، هذا ما كنّا نمثّله بالنسبة لهم، مجموعة من الدواب لا أكثر، كانت مليئة بمخلفات الأبقار والأغنام.

كنتُ أمسح وجه والدتي لأخفف من حراراتها، وسارة تصرخ بهم تطلب منهم إحضار الطبيب، وربما انفعالها زاد من جمالها حيثُ لمعت عيون من تحدثهم وأرادوا منها ما هو أكثر من الاستماع لها، لقد رأيتهم يجتمعون حولها بعد أن بقينا لوحدنا ليس معنا أحد، أخذت تصرخ وتصرخ ... تركتُ والدتي وأسرعت لنجدتها ممسكةً ببعض الحجارة والرصاص والعصي التي وجدتها على الأرض، ألقيتها عليهم وأنا ألعنهم وأشتمهم، وأحاول ضربهم بما تبقى لي من قوة، واستطعتُ إمساك يدي أختي سارة للمرة الأخيرة، رغم كل ما حدث فأنت أختي ولن أدعك، كانت دموعنا وعيوننا تعبر عن أسفنا لحياةٍ لم نعشها ولماضٍ لم نجد فيه الراحة والسكينة، لكن ما باليد حيلة، لم أستطع منعهم، فقد تلقيتُ ضرباً بالأيدي والأرجل ضرباً بالبندقية وآخر بالقدم، كنتُ كالحشرة يدهسونها ما بين أقدامهم ولم أعد أسمع شيء إلا صوت سارة بأذني: أمينة ... ساعديني ... أرجوك.

بكيتُ وبكيت حتى أغمي عليّ ، وصورة سارة تبتعد وهي تصرخ وتمدُّ لي يدها، وصورة والدتي المحمّومة وهي تأنُّ وتتألم كانت آخر ما رأته عيناي.

وحين فتحتُ عينيَّ رأيتُ نفسي في إحدى تلك الشاحنات الكريهة التي كان الآخرون يركبون بها، التفتُ فوجدت بجانبي والدتي مرميةً كأي غرض، يدها تحت جسدها وقدمها تكاد تلامس رقبتها، كانت تتأوه، اقتربتُ منها وحاولت تعديل جلستها، ثمّ قصصتُ قطعة أخرى من ملابسي لأمسح وجهها الملوث بمخلفات هذه الشاحنة، ففتحت عيناها لتراني وحاولت جاهدةً لتقول لي شيئاً ما.

وكم تمنيتُ لو أنّها لم تقل شيئاً، كانت صدمة بالنسبة لي، فاعترافات والدتي لي كانت آخر ما كنتُ أتوقع سماعه، وبعد أن انتهت طلبت مني السماح ... ومن ثمّ.....

لقد رحلت والدتي وتركتني وحيدة غريبة ضعيفة، آهٍ يا أمي ... آهٍ يا أمي . لو قدر لي أن أعطيك عمري لما ترددتُ للحظةٍ واحدة، ومهما فعلتِ تبقين أمي التي أحببت.

كنتُ ممسكةً بها واضعةً رأسي على حضنها، حينما توقفت الشاحنة، وفتح بابها الخلفي، فوجدوني أبكي جثة والدتي المشوهة والملوثة، سحبوني من بين ضلوعها وجروني على الأرض كأي حيوانٍ يُساق على المسلخ، وأنا أصرخ وأنادي : أمي.

ثمّ رموني في مكانٍ غريب، كان أشبه ما يكون بالمدرسة، كنتُ محطمة ومدمرة ومنهكة، فضلوعي مكسرة ووجهي مضرّجٌ بالدماء، التفَ الناس من حولي، إنّهم أصدقاء رحلتنا ورفاق ذلنا وانكسارنا، شعرتُ معهم ببعض الأمان، فبكيت وصرخت واختلطت دموعي بدموعهم وألمي بآلامهم وحزني بأحزانهم، فمن منهم لم يفقد قريبٍ أو عزيز.

فما الذي يشعر به الغريق وسط الأمواج .. أم ما الذي يشعر به من أخبر أنّ الموت سيلازمه ولو بعد شهر أو أكثر، خسرنا أهدافنا، وأحلامنا، وتطلعاتنا، خسرنا أحبابنا وعائلاتنا، خسرنا أطفالنا وأمهاتنا، خسرنا كرامتنا.

جمعنا معا في باحة المدرسة ، وبدأت عمليات التحقيق مع كل فردٍ منّا، وكأننّا في معتقل.

جلسنا في الباحة، الظلام مخيف، فلم تكن هناك إضاءة خوفاً من أن يتم رؤيتنا من طائرات استطلاعية تحلّق فوقنا.

وبعد فترة من الزمن وزع علينا بعض الخبز اليابس لنأكله، وقالوا لنا وهم يعطوننا إياه: سدوا بطونكم بها، هذا أكثر ما تستحقون.

كانت الأمهات تبلل قطعة الخبز بفمها قبل أن تعطيه لأبنائها، وربما ترطبه بدموعها ودموع أبنائها.

لم ننم طيلة تلك الليلة الحزينة من بكاء وخوف وفزع وألم وتعب.

كنّا ندعو الله أن يكون كابوساً جماعياً، وأن نصحو لنجد أنفسنا في منازلنا وبين أفراد عائلتنا سليمين وبصحة تامة.

كم أفتقد فنجان قهوتي صباحاً .. ضوء الشمس وهو يتسرب رويداً عبر

نافذتي ليداعب وجهي . افتقدت مخدتي وأريكتي وإنن كانت صغيرة علي كم شعرت حينها بوسعها .

وأفتقد غرفتي، منزلي، أصوات العصافير تغرد وتدعي وتذكر الله سبحانه صباحاً.

أفتقدُ رائحة الطعام تفوح من مطبخي، أفتقد تنظيف منزلي ومسحه وترتيبه، أفتقد حتى مشاكلي مع أخوتي.

أفتقد ساعة الفطور وموعد الغداء والعشاء.

أفتقد صوت الأذان صباحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءا. أفتقدُ مياه منزلي، ضوئه . غرفه .

أفتقدُ صوت الجيران وهم يرمون بالحجارة على منزلنا. أفتقدُ صوت رنين هاتفنا الأرضي.

أفتقد دراستي أفتقدُ عملي.

أفتقدُ صديقتي وزملائي، بقينا مستيقظين حتى أذان الصبح، هنا بدأت تتعالى الأصوات ... خرج أحدهم وأخذ يلقي علينا قائمة بمجموعة من الأسماء وبعد انتهائه. قال أنّ الأسماء التي ذكرها سيتم نقلها بنقلٍ خاص لمنطقة ما.

خرجت المجموعة الأولى تُفتش ويُذاع اسمها عبر باب المدرسة لتقرر أين ستذهب.

تلتها مجموعة ثانية فثالثة فأخرى، إلى أن اتسعت الباحة، باحة المدرسة علينا ... ولم يبقى سوى قلة قليلة ضعيفة منكسرة، وكنتُ من بينها.

أشرقت الشمس ... ونحنا نناجي المولى أن يأتي دورنا ونخرج من هنا وننسى الألم والغدر.

جاء الصـوت حاملًا ورقة وبدأ يذكر الأسـماء بتتابع لا يعلمه سـواه، وذكر اسمي من بينها ... علت الدهشة والفرحة وجوهنا والعبرات عرفت طريقها لعيوننا ... وقلنا: يا رب

كنّا في رحلتنا الجديدة .. مهدودين متعبين لا تسـمع لنا صـوتاً أو همسـا أحنينا رؤوسنا حزناً وألماً وخوفاً وتعبا.

حتى الأطفال لم تعد تسمع لهم صوت.

هل فقدنا طعم الحياة؟ إذا كان ذلك فهذا يعني أننا قد ذقنا طعمها قبلًا،وإن كنّا قد عشنا فقراً وضيقاً.

جالسين بقرب بعضـنا البعض منصـتين لصـوت السكون ... وهل للسكون صوت.

لا تسمع إلا صوت هدير المحرك ... الى أين هذه المرة .. أين سيأخذوننا.

كان يوما مشـمسـاً بشـكل غير اعتيادي ... شـمس قوية تحرق الوجوه ... رغم سـاعات النهار الأولى .. هواء ورياح تصـفر تنذر بالسـوء وباقتراب الألم .. تدعونا للهرب والنجاة ...حدثتها قائلة: أين تريدين منّا أن نهرب؟ والى أين.؟

لم نلبث وقتاً طويلًا حتى توقفت السـيارة ... قادونا ببندقياتهم لمكان آخر لا أعلم ما هو .. أهو منزل لأحدهم .. أم هل هو ملجأ .. لا أحد يعلم .. دخلنا .. وطلب منا الانتظار ... انتظروا ربما موتكم أو طريقة موتكم .

انتظرنـا حتى مـلَّ الانتظـار منّـا ولا نعلم إلى متى ولا أين نحن ولا مـاذا ينتظرنا؟؟؟.

نراقب بعضنا بعضاً متوجسين مترقبين ... أفكارُ تقتلنا وترعبنا وأخرى تزيدنا صموداً وقوة .

جاءوا من وراءنا، كان معهم امرأة قاسية الملامح متجهمة الوجه يقطر من وجهها الشر والحقد، فاقتهم حقداً وتعصبا ... دخلت غرفة وأمرنا نحن النساء أن ندخل واحدة تلوى الأخرى للتفتيش، أخذنا حاجياتنا ودخلنا.

أخذت هذه المرأة تفتش وترمي كل شيء وكأنّها تبحث عن مال يخصها

فقدته بين ملابسنا أو أساور من ذهب سرقت منها ودست بين أشيائنا. كأنّها هي الضحية ونحن الظالمين القتلة...

أخذت كل شيء ذو قيمة وقعت عيناها عليه .. لم تفتشنا بغية التأكد من

أننا لا نحمل سلاحاً أو ما شابه .. بل فُتشنا لتسرق منا آخر ما نملك،

آخر ما استطعنا حمله من منازلنا، آخر ذكرياتنا، سرقت منّا أجهزة المحمول ... الصيغة والأساور ... المال ... والدواء ... وأجهزة اللابتوب ... وكل شيء...

حاولت جهدي حينما جاء دوري أن أخفي اللابتوب الخاص بي ضمن أشيائي فلا تراها ونجحت ، لكنني حينما خرجت أتاني أحدهم يصرخ ويقول أريني ما تخفين، وضع سلاحه فوق رأسي على جبيني وقال لي: أأقتلك أم تعطيني إياه؟؟؟

ثم أمرنا بالسير واجتمعنا مع مجموعات قد سبقتنا ... سرنا مشكلين جداراً من بشر ... رؤوس محنية تحث الخطا، لتبقى مع الجماعة.

مررنا بأناس وأطفال ونساء يعيشون حياة طبيعية ينظرون لنا مستغربين وعيونهم ترانا متسولين.

لو كان للقلوب ألسنة لتحدثت وأجهشت بالبكاء، لكانت قالت لهم: لسنا

متسولين ولا حثالة، لكن جار علينا الزمن وجار علينا أهلكم وأولادكم. لكانت سألتهم: هل أنتم سعداء بما فعل أبنائكم بنا.؟

ثم أمرنا بالتوقف، وبعدها طلب منّا أن نسرع وألا ننظر إلى الخلف.

ركضنا لا نعرف لماذا؟ ولا نعرف إلى أين؟ .. ولا نعرف من ماذا نخاف؟.. ولا لما نركض ؟.. لكننا أسرعنا بكل قوتنا الباقية لنا متأملين أننا حقا قد نجونا .. وأنّ الحياة ما زالت أمامنا .

لم ننظر للخلف ليس استجابة لأوامرهم، بل إنما لننسى ما عشناه وكأنّه حلم بل كابوس سنستيقظ منه قريبا.

سمعنا اطلاق رصاص علينا .. أسرعنا أكثر وأمسكنا ببعضنا البعض وناجينا المولى ألا تصيبنا إحداها.

ازداد اطلاق الرصاص و زاد معه خوفنا وصراخنا .. إلى أن وصلنا لمنطقة سكنية ... يخرج أبناؤها من المدرسة منصرفين عائدين لبيوتهم ... اقتربنا

وتوقف اطلاق الرصاص .. أردنا قطع الشريط الذي يفصلنا عن هؤلاء

الأطفال السعداء بانصرافهم وعودتهم ليجدوا طعاما لذيذاً وأماناً وسكينة، لكن....

لم يسمح لنا بتجاوز هذا الشريط .. وطلب منّا الانتظار، وجمعنا كأننا قطيع من الغنم تركت في صحراء لترعى.

جمعنا حشوداً في منطقة لا ظل فيها ولا شجر.. لا عشب فيها ولا زهر .. لا بيت فيها ولا سكن .. لا ناس فيها ولا نفس..

قيل لنا لا يمكنكم الدخول حتى يتم التحقق من هوياتكم وبطاقاتكم الشخصية.

حدثتُ نفسي: لماذا ؟؟؟؟ هل منظرنا يوحي بعصابة ؟؟.. هل أطفالنا الجياع يوحونا بالعداوة ؟؟.. هل وجوهنا المغبرة المكفهرة توحي بالخبث والدهاء ؟؟.

كنّا نتوسل إليهم قائلين لهم: أرجوكم هدنا التعب والجوع والذل .. كفانا ذلا .. كان أهون علينا أن نذلّ من أناس حسبناهم ليسوا منا .. ولكن أن نذلّ ممن نعدّهم من أهلنا .. فهذا شيء لا يطاق له صبراً.

صبرك يا الله ما باليدي حيلة.

جلسنا على الرمل الحارق .. والشمس تحرق وجوهنا وأيدينا .. ووضعنا المناشف التي أخذناها من ملجأنا الأول من معمل المناشف في بداية رحلتنا هذه كتعبير عن السلام .. وضعناها فوق رؤوسنا ورؤوس أطفالنا ونسائنا وكبارنا وشيوخنا .. رجوناهم ببضع قطرات من الماء .... استجابوا لطلبنا وأمدونا بماء شبه كافي .. شربنا قليلًا وارتوينا قليلا.

وضعوا لنا ما يشبه الخيمة لنلبي فيها نداء الطبيعة ، ولتكون حمام لنا.

تمّ تحويلنا لمعتقل بعيد حقق معنا ما يقارب عشرة أيام أو أكثر، ثمّ تمَّ الإفراج عنّا ونلنا براءتنا على عملٍ لم يكن لنا فيه خبزٌ أو فطير.

٢٠٢٤/١٠/٢٠

عدتُ لمنزلي، فلم أعرفه، فسطحه كان مداساً لقدمي.

فقد استوت جميع البيوت على الأرض، وأصبحت كالرماد وكأنّها لم تكن يوماً شامخة.

وقفتُ على منزلي والدموع تنهمر على خدي، أستذكر صورة والدي المريض، والدتي وهي تموت، سارة وهي تمسك بيدي وتصرخ، سامي وهو يغادر المطار مطأطئ الرأس، جوري وهي تمسك بثوبي لا تريد فراقي، أُمنية التي لم أرها إلى الآن.

أستذكر حديث أمي وطلبها السماح مني.

أنا الآن لا شيء، ولا أعرف من أنا، وما هو اسمي.

تمت بعون الله